رواية

# من يستأجر لي وطنا؟

الطاهر مرابعي

خيال

الطاهر مرابعي

# من يستأجر لي وطنا

رواية

**دار خيال للنشر والترجمة ©**
**تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور**
**برج بوعريريج – الجزائر–**
**0668779826**
**Khayaleditions@gmail.com**
**ردمك : 978-9931-738-88-6**
**الإيداع القانوني : السداسي الثاني 2019.**

# عتاب

إلى كلّ المنافقين الذين لم يتذوّقوا حلاوة الوطن..
ويعيش الوطن مقهورا في جيوبهم..
يكدح من أجل لقمة عيشٍ..
يسرقها في آخر الليل..
عند غفوتهم..
ليطعم فقراءَه..
والوطن يبكي..
مشلولا بفِعلَتهم..
يشكو إلى الله..
نزيف الزوارق المبحرَة في دمِه
... إلى كل الذين أهدوا أحلامهم لحيتان البحر
... وإلى أمّهاتهم
ساقيات أمواجه بدموعهنّ

تمام الثالثة مساءً بتوقيت الخوف، يحطّ شبح الطائرة في داخلي.. تهتزّ تحت وقع عجلاتها وهي تصطدم بالأرض.. سرابٌ كثيفٌ يزحف نحوي ويفتح فمه ليبتلعني.. حصار سراييفو في البوسنة والهرسك.. فوضى في رومانيا، إعدام تشاوسيسكو.. أحداث كثيرة تتزاحم داخل رأسي.. موسيقى نشرات الأخبار وهي ترافق إذاعة نبأ اغتصاب النساء وإبادة الأقلّيات المسلمة على يد الصرب بعد سنوات من الحصار.. تختنق أنفاسي بكوابيس نيقوسيا وتطاردني قبرص قبل أن تحطّ الطائرة في مطار لارنكا، وفي أذنيّ يهمس صوت مألوف.. يُسري فودة، صحفي قناة الجزيرة يقرأ بيتا من الشعر في برنامج "وكر الجواسيس"، ليعاود إثارة الفزع في نفسي عن كواليس الشوارع المظلمة.

مثلّث الخطر يفتح أضلاعه ليُطبق على ما تبقّى منّي.. لم يكن يخطر ببالي، وأنا أتتبّع هذه المساحات الشاسعة بهاتفي الذكيّ، بأنها متباعدة وتترامى بين أوروبا الشرقية وغرب آسيا.. فِعلاً إنّ المصائب يجمعْنَ المصابين، كل هذا التقارب في الأحداث صنعته أجواء التقلّبات والصراعات والغموض.. منطق التموقع وصراع المصالح يروي قصصا مختلفة عمّا نعرفه.. هذه هي منطقة الضغط المنخفض القابعة بين المعسكر الغربي الذي مازال واقفا، والمعسكر الشرقي الذي لم تبق إلا أطلاله وبعض قصص ماضيه.. لم تبق سوى قصص تحكي تفاصيل ملحمة كاذبة اسمها الحرب الباردة، صدّق العالم الثالث بأن مصيره

محكوم برهاناتها، وحمي وطيس حربها في شرقنا، فابتلع ملياراتنا على أبواب إيران وفي أعماق أفغانستان، في صراعٍ وقودُه العرب وغنائمُه ثرواتهم.. لم نكن نشكّ في أن حلفاءنا وأصدقاءنا وقتها وجهٌ جديد لاستعمار لطيف، لذلك تسابقنا لاختيار السيّد الذي تنحني له ظهورنا من أجل أن يركبها.

ثوانٍ بعد هبوط الطائرة ونزولي منها، تستدرجني نظرات شقراء تقف خلف زجاج مبنى المطار.. أجرّ حقيبتي الكبيرة، وتتملّكني قناعة بأحد أمرين؛ إما أن يكون مكاني داخل الحقيبة، أو أنّ سلاف هي حِملي في الحقيبة، لأفرَّ بها إلى مقلتي عينين كبيرتين، أخترق بهما قرونا من العُزلة والصمت، تمتد من شمال إفريقيا البربرية، إلى صحاري نجد وتهامة العربية، مرورا بعنق خليج العرب، حيث ترقد خيبات كثيرة ماتت قبل أن ترتوي بندى خصلات أوراق القمح الذي زرعه الأمريكيون، واندثر العرب دون أن يتمكّنوا من طحن حبّه..

تُشرِعُ سلاف ذراعيها على امتداد باب المطار، وتحتضنني لتكشف سرّا أخفته دموعٌ ذرفها نزار قباني قبل موته ولم تراوح مقلتي عينيه.. تاريخ وجدان مليء بالعفّة يتعرّى مرّة واحدة أمام أوّل نظرة بعيدا عن الخيام.. ينتقم لجنون قيس هناك، ويغسل دموع بن قيطون الذي ذرى رماد جسمه على قبر حيزية هنا.. ولم يبق من أثره إلا قصيدة غزل تنقلها كثبان بسكرة إلى أقاصي

المدينة، ثم تعود بها من جديد إلى قبر خلّدته حُرقة رجل إفريقيّ على امرأة وَلَدتْ مثلَها النساءُ المئات..

أربع سنوات محمومة مُفحمة بعشق عربيّ يلبس البطولات ويموت دونها.. عقب سيجارة.. قنينة نبيذ الشعير "بردى".. وأشياء أخرى من متحف عربي تتدثّر بها سلاف، لتستقبلني استقبال عائد من الحرب، ضائع جائع؛ جائع لكل شيء.. للطعام، للجسد، للحرية، للموت، للحياة، للسلطة، وللمال.. استقبالا يليق برجل يجمع في شخصيته كل التناقضات، يختزل في قلبه وعقله خيبة أمل جيل بكامله.. خيبة تحفر في أعماق نفسه المقهورة جرحا غائرا.. تجربة جيل خسر كل شيء، رغم أنه لم يملك شيئا.. جيل يحمل بين يديه بقايا وطن.. يفرّ به إلى الله!.

لم أكن بحاجة إلى شيء أكثر من الندم في هذه اللحظة بالذات، وفي وقت لا مكان فيه للتفكير، تستسلم كل انتماءاتي في حضرتها، قبل أن يكسر سائق سيارة الأجرة جدار الصمت بإلقاء تحية إنجليزية على سلاف، يخبرها بأن الغرفة جاهزة وبأني في حاجة إلى الراحة قبل اكتمال المساء، مردّدا "الطريق بعيدة نحو نيقوسيا.. الطريق بعيدة نحو نيقوسيا".

رفضتُ أن يحمل السائق حقيبة ندمي.. فكرتُ في عُملة بلاده، لغتهم، ماذا يجب أن أفعل ليكون تصرّفي محمودا وما الذي يجب أن لا أفعل حتى لا يكون تصرّفي شائنا، لا ينبغي أن

يصدر عن شاب يرغب في تقديم نفسه بقناع لا يعرف أحد ما يوجد خلفه.. قناع يُبعد عنه الأنظار بأنه عربيّ أو مسلم.. قناع يمكّنه من أن يخترق مجتمعا قد يصبح فردا منه.. قبل أن توقظني تربيتة على كتفي بيد سلاف.. حسناء الفيسبوك التي لا أعرف عنها سوى زرقة بحرين يسبح الغموض فيهما.

تسألني سلاف "كيف حالك زهير؟ تبدو مرتبكا.."

ودون تفكير أجيبها بعقلية الجزائري "عادي، لم يربكني شيء..".

وأبتلع كلمات كان يمكن أن تسمعها مني، لو لم أكن بين يديها، كان يمكن أن أقول لها في غير هذا المكان من العالم وفي غير مثل هذا الموقف "أربكني جمالُكِ.." ثم أستسمحها القيام برحلة في أعماقها لأقرأ رسائلها التي كانت تكتب لي وأخترق حِبالها الصوتية لأتأكد بأنها لم تكن تصطنع معزوفاتها حين كانت تُسمعني عبارات التحية عبر موجات الموبايل.

قبل أن أختار المكان الذي أجلس فيه على الأريكة في جناح الفندق، دخلت والدتها وهي تردّد قبل أن ترى وجهي "زهير، حبيبي.. حدثتني سلاف عنك كثيرا، كدت آتي بها إلى الجزائر لملاقاتك، أخبرتني عن طيبتك.. باحت لي بسرّ الأموال التي أرادت أن ترسلها إليك لتستثمرها في العتاد الطبيّ ورفضتها، هي دائما تردّد كلمتك: لا ينبغي أن تدخل حسابات المال بيننا، فالمال يفسد المودّة بين الأصدقاء..".

كدتُ أضيف لها من رصيدي "المال والنساء.."، لكني خشيتُ أن أعكّر جوًّا مازلتُ لم أسبُر أغوارَه بعدُ، قبل أن تفاجئني بالقول "لستَ في حاجة إلى السلاح هنا، المكان آمن، تستطيع النوم دون غلق الباب.. بإمكانك الخروج إلى الشارع وحدك.. تذكّر فقط الطريق حتى لا تتُوهَ...".

أدخلتني هذه الكلمات في جحيم، شددتُ يداي حتى لا تخونانِ وتُمسكا برأسي أمامها.. خشيتُ أن يفضحني الخوف.. وتذكّرت كلمة كانت سلاف تقولها لي حين أسألها عن والدتها قبل أن نلتقي، كانت تتلفظ بثقة "لعنة الله عليها، نعم تستحقّ اللّعن من الله ورسوله!".. كان ذلك هو الموقف الوحيد الذي لم أستطع هضمه، رغم أني ابتلعته بعد أن عجزتُ عن الحصول على إجابة تقنعني، وبعدما أدركتُ بأن السؤال حول هذا الموضوع يدخل في باب المخاطرة.

كانت عيناي تتوسّلان النعاس أن يبتعد عنهما، وما كنت أسترجع يقظتي بين الفترة والأخرى حتى شعرتُ بقدميّ حافيتين.. وقبل أن أتلمّسهما، انتبهتُ إلى سلاف وهي تحمل حذائي في اتجاه الفناء...

شعورٌ قويٌّ بدفء كبير لم أتعوّد عليه، حاولتُ أن أستغلّه لأظهر ثقتي في سلاف وأمّها، لكن سلاف سبقتني بابتسامة ماكرة، أغنتني عن الشكر والتعبير عن الامتنان.. كانت تقول لي وراء ابتسامتها "فهمتُ أنك ندمتَ لأنك أتيتَ.. فهمتُ أنك

تبحث عن فرصة لإهدار ابتسامة تستميلني".. كانت ابتسامة عميقة، حفرت في أربع سنوات من التعارف الوهميّ...

دعتني الإيطالية.. شقراء نابولي التي حيّرت المافيا والبوليس إلى دخول غرفة النوم للراحة.. وقبل أن ألقي بجسدي على السرير الذهبي.. ألقت عليّ بقنبلة...

"عندما تستيقظ، ستحدثني عن تمثال عين الفوارة، أصدقاؤنا دائما يتحدّثون عنه.. يعجبهم كثيرا.. الآن وصلتني رسالة منهم، أخبروني بأنهم أمامه وسيغادرون نحو قسنطينة لزيارة شوارعها العتيدة!".

عُقدة المفتاح!.. هل أقفل الباب أم أتركه مفتوحا؟ هل أنام بملابس السفر أم أخلعها؟ هل توجد كاميرات مراقبة في الفندق؟ هل توجد كاميرا جوسسة داخل الغرفة؟ من يمكن أن يتجسّس عليّ في غرفة النوم؟ هل الفندق ملك لسلاف؟ هل ورثته عن أبيها؟ أين يوجد أخوها المريض بالتوحّد؟ أين أوجد أنا؟ أين الله؟ أين القبلة؟.. أسئلة كثيرة تشلّ عقلي.. تتوالد فوق سرير ليس لي...

كانت الساعة تمام العاشرة ليلا حين شعرتُ بأنه ينبغي لي أن أتفقّد أطرافي، يداي، رجلاي، فمي، عيناي.. هل أنا حيٌّ؟ هل مازلتُ في مكاني الذي نمتُ فيه؟ هل أنا مكبّل اليدين أم معصوب العينين؟.. هل يمكن أن أفتح عيناي على كراسٍ تحيط بي، مليئة بمافيا إيطاليا أو جواسيس نيقوسيا؟

استيقظ شعور سلاف بتوقيت رُعبي فدخلت الغرفة وحاولت إقناعي بأن جولة ليلية منفردَين كفيلة بترتيب نفسيّتي.

ردّدَت مرارا وتكرارا "كوني هاكرز، لا يعني أني مافيا، عملي لا يتجاوز برامج الحاسوب.. أنت تعرف بأني نادرا ما أخترق المواقع.. ما أتصرّف به لا يخرج عن ردّ فعل طبيعي.. لا تُلق بالاً لموقع مجانين الذي اكتشفتُ ثغرته واخترقته، ما فعلته كان بسبب خلاف مع سمير، مدير الموقع.. لقد أهانني أمام الأعضاء وجمّد عضويتي وطردني، كان ذلك سبب توقف موقع التعارف...

لماذا قبلت المخاطرة والمجيء من الجزائر؟ أنت لا تعرفني.. ثلاث سنوات أو أربع في فضاء افتراضي لا تبرّر قبولك، أنت تجازف كثيرا..."، ثم تضيف.. "هل تحبّني؟ أجئت لأنك تحبّني؟ أم جئت لتحصل على المال؟.. نيقوسيا لا توفّر مناصب عمل.. لا تمنحُ الثروة لمن يرغب في المال، هل أنت عميل؟!".

في جوّ طبيعيّ معتدل، حاولتُ أن أستعيد توازني، أردتُ أن أعطي لوجودي بُعدا ضبابيا، فكّرتُ بأن التوقيع على الإجابة بختم المكان وملابسات الزمان والحديث، يناسب فكرة ربما تكون صحيحة، رغبتُ في اغتيال كلمة عميل وبدا لي أن استمرار حياة هذه الكلمة سيعصف بوجودي ويعرّضني للمتاعب.

شيءٌ من الثقة يكفيني من أجل أن أدرس تموقعي.. لم أجد أفضل من سياسة الهروب إلى الأمام، فالاستمرار في القتال رغم

الإصابة يُوهم بالقوّة!.. علّمتني التجارب أن التضليل إن لم يجلب الانتصارات فهو يجنّب الهزائم..

– أنت تعرفين بأني أحب المطالعة، ويهمّني الفكر الغربي، خاصة الروسيّ، لذلك اغتنمتُ فرصة معرفتك لدخول أوروبا، وبعد أشهر قليلة وربما أسابيع فقط، سأشدّ أمتعتي نحو أيّ منطقة في البلقان، لا يهمّني المال كثيرا، الثروة موجودة في ألمانيا وكندا، لو كنتُ أبحث عن المال لاخترتُ قِبلة أخرى، فرنسا أكثر قُربا إلينا، ألمانيا أقرب إلى قلوبنا.

تصمتُ سلاف طويلا ثم تغرس لسانها في موضوع، تمتدّ سواحله إلى إقليمي.. تجرّب السباحة في مياهه، ثم تخرج كعادتها دون أثر للبَلل..

– أنت محترفٌ وخطير، هل ستستمرّ في العمل لصالح حكومة بلادك.. كم يدفعون لك؟.

– لن يدفعوا لي أكثر مما يدفع لك أصدقاؤك.. هل تمانعين في المراوغة؟.. دعينا من هذا التفكير. هل يمكن أن تدفعي لي ثمن العشاء؟ أنا ضيف عندك...

– العشاء في الفندق، عندما نعود بعد قليل ستلتقي أحمد، هو جزائري أيضا، يعرف كل أوروبا الشرقية، زار معظم بلدانها، وأقام طويلا في بعضها، سيفيدك كثيرا إذا رغبت في دخول موسكو، عاش فيها عشر سنوات وتزوج من امرأة روسية.. على كلّ، استغلّ الفرصة قبل أن يعود إلى الجزائر، هو يريد العودة

إليها والبقاء هناك، وقد أخبرني بأنه تعرّف على طبيبة واتفقا على الزواج.. سيعود العنقاء من جديد إلى شبابه..

تقولها سلاف باستهزاء..

– أنتم العرب تنتقمون من الغرب دون استثناء.. تنتقمون من الذين استعمروكم وسلبوا ثرواتكم.

ثم تضيف..

– الروس دعموكم في حروبكم ولم يستعمروا أوطانكم، لكن كما تقولون، بالنسبة لكم "يروح المسلم في سباب المجرم"...

تضحك وهي تحاول رسم انحناءة للحياء في وجهها، ثم تعقّب "تأكلون شباب بنات الغرب، وعندما ترغبون في الاستقرار، تعودون إلى أوطانكم وتختارون بنات بلدانكم للزواج".

أحدهم يهمس في أذني "لا تصدّقها.. هي تستدرجك لتكسب ثقتك...

خطوات قليلة وتدخل وطنك من جديد.. وطنٌ يطاردك خارج حدوده.. أنت لم تهرب من التراب.. لم تهرب من وديان وأشجار الجزائر.. أنت هربتَ من مجتمعك.. هربت من مشاريعك الفاشلة فيه.. هربت إلى أفق مستحيل في وطنك...

أحمد.. ذلك الرجل الذي تتوقّع فيه شموخ الأوراس ورحابة الونشريس.. قد يخرج منه ذلك الوطن المقهور وتعود إليه وأنت في بلاد الغربة.. أيّ مخاطرة في انتظارك؟.

بعد لحظات سيقابلك أحمد في الجهة الأخرى من طاولة العشاء.. تدور صور كثيرة في ذهنك عن الألوان والأطوال والشارب الحادّ.. عن نبرة الجدية والكلمة البارود.. تتساءل في نفسك "هل يمكن أن يكون قد بقي شيء منها في رجل عاش عشر سنوات في روسيا؟ هل يمكن أن يكون صقيع موسكو قد جمّد الدماء في تلك العروق الملتهبة ومنعها من الجريان؟ هل ستحمل تجربة أحمد على ظهرك وتعود معه خائبا إلى قريتك المنسية؟".

– هل توجد أشياء خاصة أنا بحاجة إلى معرفتها عن أحمد قبل أن ندخل الفندق؟.. هل توجد ممنوعات لا أتطرّق إليها؟

– لستُ جزائرية أكثر منك.. أنت أعلم به مني.. أحمد تخرّج من أكاديمية موسكو العسكرية، هو مهندس في الصناعات الحربية، أكمَلَ الدراسة، لكنه لم يرجع إلى الوطن بعد إتمام تكوينه.. لم تمنعه الحرب الدائرة في الجزائر عن العودة، بل قهرته الشقراوات.. الآن وقد قارب الخمسين من عمره، يريد أن يصحّح حياته، سيحتفظ برقم هاتف ابنه إبراهيم من أمّه الروسية ويحمل خيباته في الهجرة، ثم يعود إلى الجزائر.. لقد استقرّ على قناعة العودة... هو يقول دائما إن الوطن ليس مجرّد اسم.. الوطن عنوان ثقيل يجب أن تتعب في حمله وإذا خفّ وزنه نقُصت قيمته، لذلك فأكثر الناس وطنية هم الفلاّحون.. هم الذين يخدمون التراب ويسقونه بعرق جبينهم، ثم يطعمون

الشعب بحصاد عرقهم.. ليس هنالك من هو أكثر تعبا منهم في حمل الوطن.. أما نصيبي من هذا الحمل الثقيل فهو العيش تحت ظل الجدّ والكدّ في أرض تعطيها الكثير من أجل أن تعطيك القليل.

كانت طلقات نارية قاتلة، أزهقت روح الأمل في صدري.. خلاصة تجربة كبيرة بعمر عقود موقّعة بختم الندم على طبق الحسرة تصلني متأخرة أو سابقة لأوانها.. يتحرّك الشيطان في داخلي "ترى!... هل خان الحظّ أحمد أم أنّ قانون الغُربة واحد والمصير واحد؟.. مثل الله، تتعدّد العقائد في عبادته ويبقى واحدا.. مثل الوطن، نتقاتل في حبّه، نتقاتل لرسم مستقبله، ثمّ نتشتّت نحن فيه، لكن يبقى هو واحد"... يكاد يعلو صراخٌ مكبوت في صدري "يكفي.. يكفي.. لن أندم، فأنا إن لم أكسب شيئا، فإني لا أملك آخر لأخسره".

****

عند مدخل الفندق، تتسرّب رائحة البارود الشاويّ إلى أنفي، سلاف إلى يساري، تقودنا رائحة الوطن إلى أحمد، نصل إلى المطعم، تصطاد العيون بعضها.. ودون سابق تعارف نتبادل اسمينا..

– أهلا بسطيف العالي، أهلا بعين الفوارة..

– أهلا أحمد، أنت تسبقني بسنوات ضوئية.. هل أنت من سطيف؟

يضحك أحمد وهو يقول "بعد العشاء اسأل ما تشاء".. أنت تحتاج إلى الراحة وإلى تناول الطعام، مازلتَ متعبا بسبب السفر.. أمامنا ما يكفي من الوقت للحديث، تفضّل.. كل شيء حلال على الطاولة، أنا أحرص دائما على غذاء إسلاميّ، وقد اطلعتُ شخصيا على مادة طبخه.

ساعة كاملة ترمي بثقلها على مائدة العشاء، لا مجال لكسر تقاليد الحديث حول طاولة الطعام بأيّ كلمة عن البلاد الجديدة ولا عن تجربة أحمد، ولا داعي لطلب أيّ فكرة أو نصيحة.. ساعة كانت تكفي للقيام بجولة طويلة في مدينة جزائرية، مرّت في الحديث عن المطاعم الراقية في المدينة وأنواع الأطباق وفي تبادل الابتسامات.. الوقت متأخّر وليس أنسب من النوم والراحة، افترقنا كلٌّ إلى غرفته، وقطع أحمد وعدا لي بالقيام بجولة داخل المدينة على التاسعة صباحا.

ازدادت الأزمة تعقيدا وأنا على الفراش.. تعاظمت الأسئلة "من هو أحمد وهل هذا هو اسمه الحقيقيّ؟ كيف درس تخصّص الصناعات الحربية؟ هل هو باحث جامعي؟ أم عسكريّ تمّ إرساله للتكوين؟ هل تمرّد على قيادته ورفض العودة؟ هل منعه الخوف من العودة إلى الوطن أم وجد الإغراء في روسيا؟ ما هو وضعه القانوني تجاه العودة إلى الوطن؟ كيف وصلت إليه سلاف وما طبيعة العلاقة التي تجمع بينهما؟".

لم تعد مشكلتي الكبرى أحمد، بل سلاف.. هذه الشقراء ملوّنة الجينات؛ عربية الأب، إيطالية الأم.. هل تعرف من أين تُؤكل الكتف؟..

لم أستسلم طول حياتي لأحد، رغم أني عشتُ حالة استنفار من أجل الدراسة ولقمة العيش وأمور أخرى، هنا في أوروبا تُمنح لك هذه الأمور دون أن تُشهر سلاحك في وجه أحد.. حياتي كانت مثل أسهم البورصة، دائما في صعود وهبوط، ورغم ذلك لم أستسلم، لكنني استسلمتُ هذه اللحظة للنوم.. وأغمضتُ عينيّ على سؤالين "من سيفكّر في التخلّص من الآخر.. أنا أم سلاف؟ هل ستكون عبئا عليّ أم أنا الذي سيكون عبئا عليها؟".

خلاف المتوقّع، احترمنا موعد اللّقاء وكسرنا عقيدة أصبحت صفة لشعب بأكمله.. التاسعة تماما.. أحمد يدقّق بنظرات حادّة، تخفّف من شدّتها ابتسامة عريضة، ويمدّ يده بقبضة صارمة، تؤذن بيوم جادّ.

– تعال.. اركب، هذه سيارتي.. تبدو مهترئة.. الحال في أوروبا الشرقية غيره في الغربية.. روسيا أو مقدونيا أو صربيا.. كلّها واجهات لعالم فاشل، إلا في القتل والحرب.. الرفاهية هناك في الجهة الأخرى.. هنا يعمل الناس لكسب قوت يومهم فقط، تماما مثل إفريقيا.. مجال الحرية محدود أيضا، هنا لا يكذبون عليك، لن يُوهموك بالديمقراطية.. منذ أوّل لحظة ستتعلّم

بأنك تتحمّل مسؤولية أيّ خطأ، ثم يهمس في أذني "ألطف الحرام هنا هو تجارة السلاح والمخدّرات، إذا رغبت في المحافظة على ثقافتك عُد إلى الجزائر أو سافر إلى الخليج.. هنا ستفقد الكثير.. ولن تكسب إلا القليل.. الكسب الكثير في الجهة الغربية لأوروبا"...

– أعرف ذلك.. لكن أبحث عن شيء آخر، ربما أنا نفسي لا أعرفه، كنت أفكّر في التوجّه إلى أيٍّ من منطقة البلقان، ثم دخول روسيا، وعندما تعرّفت على سلاف اطمأّنت نفسي إلى هذا المكان، لكنني لن أقيم فيه طويلا وسأغادره.. ولا أكتمك سرّا أني أرغب في الحصول على وظيفة عاجلة، أجمع بعض المال لأتوجّه نحو روسيا.. الأرض ضيّقة في هذه الزاوية من العالم، بالكاد تكفي أهلها.

يصمت أحمد، يفكّر..

– هل حدّثت سلاف حول الموضوع؟

– لا.. ولا أفكّر في فعل ذلك..

– أنصحك بأن تراجع الموضوع معها، أنا لا أعرف نيقوسيا جيّدا، وإذا تمسّكت بموقفك، سأساعدك في روسيا.. لديّ صديق هناك يعرف شوارع موسكو وأزقّتها، ويمكنه أن يخدمك.

– هل هو جزائري؟

– يا زهير!.. أنت تركت الجزائر خلفك، هل تريد أن تعود إليها؟

– لا، ولكن أبناء الوطن أولى ببعضهم، خاصة حين تجمعهم الغربة.. ألا يقولون إن حبّ الوطن فطرة في الإنسان؟ حبّ الوطن يحيا في قلوبنا حين نبتعد عنه.. عندما نفقد الشيء نعرف قيمته، الوطن بالنسبة لي شيء مفقود في هذه اللحظة.. أنا لا أعيش أيّ لحظة فيه، لذلك أريد أن أعوّض هذا الفقدان بالاقتراب من أبناء وطني.

يلوّح أحمد بيده بإشارة زجر..

– عندما نكون تحت غطاء الوطن نتقاتل بيننا، وحين نغادره يسكننا الشوق للتلاقي ونبحث عن سُبل التعاون.. إذا أردنا أن نتوحّد ونساعد بعضنا فعلينا بفعل ذلك في وطننا، الإخلاص الذي نبذله بيننا طاقة إيجابية نخدم بها البلدان التي تحرمنا من إفراغ هذه الطاقة في أوطاننا.. أنظر إلى فرنسا، نحن لا نرى فيها إلا تلك المباني الشامخة والهندسة الرائعة.. ألم يخطر ببالك أننا توحّدنا على مبدأ الصرامة والتعاون فيها فبنينا لمستعمرنا تلك المباني ووفّرنا له الرفاهية والازدهار... لنا عليه دينٌ كبيرٌ منذ أن نزل في شواطئ سيدي فرج وأخذ أموالنا التي كانت موجودة في الخزائن، لكن دعنا من هذا الموضوع، هو أكبر منّا نحن غير مسؤولين عمّا يجري في الجزائر أو فرنسا.

– ليكن، سأرسلك إلى مرجان، هو جزائري ويواصل دراسته في موسكو.. دفع مبلغا كبيرا من أجل تكوين نفسه، وفي الليل يعمل في الفنادق والمطاعم، وأحيانا في المخابز، ربما ستتفقان في

طريقة التفكير، فهو رجل يريد أن يبقى محافظا، وجد وظيفة في معمل مشروبات كحولية بأجرٍ مرتفع لكنه رفضها.. سأعطيك عنوانين، الثاني لصديق اسمه ساعد يعيش في أوكرانيا.. قد تمرّ منها وتحتاجه.

– لا تهمّني الجوانب الشخصية كثيرا، تعلّمت بأن المظاهر خدّاعة، واكتشفتُ بأن الظروف تغيّر القناعات.. الناس يلبسون لكل مناسبة ثيابها، ويغيّرونها حين تبلى ويتجاوزها الزمن.. قطار الزمن يسير إلى الأمام ولا يعود إلى الوراء، فلا تتركه يفوتك.

– هل ستشتغل في معمل المشروبات الكحولية؟

يضحك أحمد ملء فمه وهو يقول "رائحة الفودكا ستقتلك وأنت في ريعان شبابك.. هي صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها.. عُمرك مع السعادة سيكون طويلا بكؤوسها".

نتبادل لحظات من الصمت.. تتقاطع أسئلة كثيرة في عقلينا.. لا أحد يجرؤ على كشفها للآخر، ونراوغ بعضنا بموضوع جديد..

– هل تشعر بالجوع؟

يتردّد الجواب بين لساني وقلبي.. وتفضحه معدتي..

– ربما.. !

ثم أعقّب..

– هذه المرّة أنا من يدفع

– مازال دورك، حين أدفع أنا نتحدّث عن دورك، البارحة كان العشاء على حساب سلاف، بالمناسبة، لماذا وافقت على المجيء إلى قبرص؟ هل فكّرت في الموضوع؟.

– التعارف بيننا قديم.. لا أفكّر مع سلاف بذلك المكر، هل لك رأي آخر؟

– لا.. ولكن سلاف فتاة إلكترونية، عندما تخرج إلى الواقع تعجز عن التواصل مع الناس.. كل شيء في حياتها افتراضي.. الواقع بالنسبة إليها إلكترونات داخل الحاسوب.

تشعر في غمرة الأحداث بأن العالم تخلّى عنك فجأةً.. تبحث عن جار هنا فلا تجده، تهُمُّ بمناداة ابن العمّ فتتذكّر أنك تركته خلف البحار، تبحث عن أخٍ، فلا تتذكّر إلا أخًا ولدته أمك وغدرتَ بنفسك حين ابتعدتَ عنه.. تطمح إلى السماء فتجدها بعيدة عنك.. تنظر إلى الأرض فتُدير لك ظهرها.. تحلم ببطنها فيلفظك... لم يبق لك إلا الله.. وكل من حولك فرعون..

أرضك في ذلك الوطن الذي تركته وكنت تكافح فيه من أجل لقمةٍ كرامةٍ.. في نيقوسيا لا وطن لك، لا أخ، لا جار، لا ابن عمّ.. لا يُسمح لك أن تصرخ في وجه أحد، سيُقال لك "اذهب إلى بلادك واطلب حاجتك من إخوانك وأبناء عمومتك، لا واجب لنا عليك..".

في هذه الزاوية من العالم تبتلعك الأرض حتى أخمص قدميك ولا أحد يبالي بك.. تتمنى لو أنك في حقول حاسي مسعود النفطية تغرق في رمالها أو تحترق تحت شمسها.. تتمنى لو أنك تلبس الرداء التارقي الأزرق وتجوب حدود مالي والنيجر.. تتساءل "هل أخطأت الرماية؟"، وتتشابه نفسك العزيزة حين هوانها ببائعة هوى، تمنح كل زبون رغبته.

تعانق عقارب الساعة السويسرية في يد أحمد بعضها، مشيرة إلى موعد الغداء.. ننزل في طريق العودة بالقرب من الفندق الذي نقيم فيه، يُوقف أحمد السيارة أمام مطعم شعبيّ.. كل شيء مرتّب في المطعم لغير الفخامة.

يقترب منّا النادل ويشير بالتحية منحنيا.. يسأله أحمد بلغة هجينة عن الأطباق التي يقدّمونها للزبائن ثم يترجم لي بالعامية الجزائرية..

– روز بالدجاج.. هل يناسبك؟

يبتسم النادل..

– يا أهلا..

أهمس لأحمد

– يبدو عربيا.. أو متعوّدا على خدمة العرب

أغتنم فرصة قلّة الزبائن وأحاول أن أستعمل كلمات فصيحة معه..

– هل تفهم العربية جيدا؟

نعم، يا أهلا وسهلا..

يقطع أحمد طريقي أمام لقاء قيل فيه "ربّ صدفة خير من ألف ميعاد"، ويوقّع الطلب بأول طبق عرضه النادل.

– يا زهير.. لا تحرق كل سفنك مرّة واحدة.. لا تستعجل، تذكّر أنك مازلت لم تختر اسما سريّا تتعامل به..

– لماذا أختار اسما سريّا؟

– لا أريد أن أنصحك كثيرا، لكن لابدّ أن تنتبه إلى تصرّفاتك، خاصة هنا، أترك النوايا الحسنة لعلاقتك مع الله، مع البشر عليك أن تكون مستعدّا لأي طارئ.. عندما تدخل نزلا، اختر غرفة يوجد بها أكثر من مخرج.. لا تعطي اسمك الحقيقيّ إلا حين تقدّم وثائقك.. انتبه إلى من تطاردك نظراتهم في الفندق وخارجه.. لا تقدّم مواعيد دقيقة لمن لا تعرفهم جيدا.. احتفظ باسم مستعار واحد تقدّم نفسك به في المنطقة التي تنزل بها.. كل فتاة تستجيب لاستدراجك خطيرة أو عميلة.. الهدايا التي تصلك عن طريق النادل ويرسلها لك أشخاص مجهولون تخلّص منها دون لفت الانتباه..

تزداد المسافة بيني وبين أحمد بُعدا، ولا يشفع الوطن الواحد لبناء الثقة بيننا، بدا لي كلامه خطيرا، ورفقته لساعة واحدة أشدّ خطورة، وأصبح النادل مفتاحي الذي يجب أن لا أضيعه.. الأمر الواقع أصبح يفرض منطقه..

أبتسِمُ في وجه أحمد وأنا أقول "حين نركب السيارة، سأحتاج إلى سماع المزيد، يظهر بأني مبتدئ في كل شيء".

وأشرع في كتابة روايتي في السيارة قبل أن أركبها، ستبدأ حياةٌ جديدةٌ، وعليّ أن أكون بارعًا في رسم لوحاتها وتفصيل مشاهدها، عليّ أن أكون بارعا حدّ المكر، ولن يبقى مجال للعودة إلى حكمة "الحيلة في ترك الحيل".. بعد دقائق سأصبح إبراهيم، وسيموت ذلك الطفل في صدري.. سأكون شاهدا على اغتيال سنوات من الجدّ الفاشل.. سنوات من الصدق وطلقة البارود التي تعلّمت أنها لا تعود عندما تخرج.. ويوما ما سأحمل روايتي وأعرضها على كبريات دور النشر، أو أفاوض بها كتّاب السيناريوهات ليُخرجوا بها فيلما.

نعود مسرعين إلى الفندق، كأننا تحت المطاردة، أبالغ في النظر يمينا وشمالا.. يتعجّب أحمد وهو يسألني "ما بك زهير؟"

– إبراهيم، أنا إبراهيم.. هل هذا مناسب؟

تشقّ القهقهة طريقها إلى الفندق ونتوقّف عند بابه على وقع ضحكة تخرج من أعماق قلبه.

– زهير.. متى نلتقي مرّة أخرى؟

– إبراهيم.. هل نسيت؟

– آه.. نعم، متى نلتقي؟ هل أترك لك رقم هاتفي؟

– سأحصل عليه من سلاف..

– كما تشاء.. إذا لم تطلب لقائي غدا، فانتظر أربعة أيام، سأكون مشغولا، لكنني سأعود في اليوم الخامس وأنا من يتصل بك.

الوقت باكر، مازالت ساعات طويلة قبل حلول الليل.. ترى أين هي سلاف؟

كأنها تسمع الهمس في نفسي.. تجيبني على بعد أمتار قليلة..

– أنا هنا، سمعتك تسأل عنّي، الفرصة مناسبة لتتعرّف عليّ عن قُرب، هل تسمح؟

– نعم، بم أسمح؟

– سوف نتوجه إلى مدينة قريبة، بالكاد نعتبرها مدينة أخرى، سنبقى في حدود المدينة التي نحن فيها.. مسافة نصف ساعة تكفي للوصول.

– لا بأس، هل يذهب معنا شخص ما؟

– لا أحد، أخي موجود حيث أنا وأنت ذاهبان، تذكّر.. لا تزد عن إلقاء التحية إليه، فإذا لم يرد فلا تبال بالأمر، طاوِعه.

– لا بأس، أنت تحفظين عنّي "دارهم ما دمتَ في دارهم"، كانت وعدا مني لك.

تضحك سلاف..

– أنت في دارك..

كانت أوّل مرة أعرف فيها بأن سلاف تجيد المناورة، وتقفز على القوانين! كانت تقود السيارة بجنون، وما هي إلا لحظات حتى وصلنا إلى شارع قريب، توقفتْ أمام محلّ فخمٍ له واجهة مكتوبة بالإنجليزية "كومبيوتر بسعر رخيص"..

– مرحبا، تخطّيت الاختبار الأوّل بنجاح، تفضّل بالدخول عبر الباب الخاص، لا تدخل من باب الزبائن.

كان المكتب مريحا ومنظما، تحيط به أرائك مغلّفة بالقماش، تجلس وهي تقابلني في الجهة الأخرى للمكتب وتسأل..

– هل أعجبك المكان؟

فهمتُ من الوهلة الأولى بأنها لا تتطلّع إلى سماع إجابتي، ولأني أعرفها، بادرتها بالقول "ليس هذا هو السؤال الذي تريدين طرحه، ادخلي البيت من بابه..".

تضحك وهي تقول..

– صريحٌ وعفويّ جدّا، لكنك تخفي شيئا.. لماذا جئت إلى نيقوسيا؟.

– جئتُ لأنك كنت تلحّين عليّ بزيارتك، هل ثقُلت عليك ضيافتي؟

تمنعني بقايا شهامة وكرامة حملتها معي إلى نيقوسا من أن أقول لها "جئتُ أبحث عن الحياة في عالم أفضل، جئتُ أبحث عن عمل ومستقبل"، فتفهم الموقف وتستعجل بالتعقيب..

– لا... لم يثقل عليّ نزولك عندي، أستطيع أن أستضيفك سنة كاملة على حسابي، ويمكنك مساعدتي إذا رغبت في البقاء معي، توجد أعمال كثيرة يمكنك القيام بها هنا، أنت تعرف بأني ورثتُ أموال أبي، لديّ هذا المحلّ هنا، وأدير مشاريع أخرى ستعرفها في الوقت المناسب، وإذا رغبت بالذهاب إلى إيطاليا سأتدبّر الأمر، وسأزورك هناك بين فترة وأخرى، لديّ أعمال هناك ولدى أمي منزل أيضا، لكني لا أعدك بشيء بخصوص أمي، فقد لا يناسبك الالتقاء بها كل يوم..

تضحك وهي تستعدّ لإحياء حكاية قديمة..

– قُلها، لا تتردّد.. هل أقولها مكانك؟ "لعنة الله عليها، عدوّة الله ورسوله!"...

– ليس الوقت مناسبا لهذا الأمر، تبدين أكثر جنونا مما ظننتُ.. هل الضحك يليق بموقف اللّعن؟ منذ سنة بدأتِ اختبارات ردّ الفعل بمثل هذه التصرّفات الحادّة ولم تتوقّفي؟ هل تبحثين عن شيء محدّد عندي؟ يمكنك أن تسألي مباشرة؟.

– لا أبحث عن شيء زهير، إلا المال.. وستشاركني في جمعه، ستصبح ثريا، لكن عليك أن تراجع بعض قناعاتك، لابدّ من المرونة والتأقلم في السوق، ستتدرّب على ذلك بمرور الوقت، هذا الأسبوع سوف أعرّفك على صديق مهم، إذا اتفقتما ستنتقل للعمل معه، هو يدفع كثيرا ولا يبخل على عملائه..

العمل معه ممتع، ستجمع بين السياحة والأعمال، أخبرني أحمد بأنك ترغب في زيارة موسكو.. هذه فرصتك.

كلامها يبدو مثل رصاصات طائشة أو بالونات اختبار، لكنها استعجلت بإطلاقها في وقت واحد، وبالمنطق الاستراتيجي، أصبح في حكم القناعة عندي أن سلاف أحرقتْ كل سفنها ولم يبق لها ما تقوله، بل انتقلت الكرة إلى مرماي لأقول لها ما تريد قوله نيابة عنها.

فهمت أن سلاف لا تريدني أن أطلب منها الالتحاق بإيطاليا، وأصبحت فكرة وجود أعمال لها فيها مجرّد تضليل، تشبه كثيرا إلحاحها عليّ لإرسال المال إلى الجزائر لاستثماره في تجارة العتاد الطبيّ، ولا تقلّ عنها مراوغة حكاية الصديق الروسيّ، إشاراتها تقول أشياء كثيرة عن الثقة، تمهّد نفسيّتي لرفع النقاب عن أمر صادم، أحد أخفّ الصدمات أن تطلب مني الزواج.. الزواج منها لا يختلف عن الانخراط في شبكة لتهريب الأسلحة أو تزوير الوثائق أو المتاجرة بالمخدرات.

مرّة أخرى، يزداد قرب نادل المطعم منّي عن قُرب سلاف وأحمد، بل يزدادان بُعدا عنّي.. كأنهما يهربان بي عنهما، وتخرج رصاصة من عين سلاف وأخرى من عين أحمد، أراهما تأخذان مسارا لولبيا وتحفران في جسد النادل، تخترق رصاصة سلاف قلبه، وتفجّر رصاصة أحمد رأسه، فيسقط ميتا على الأرض

وطبق الطعام بين يديه، ثم يصرخ الضمير في داخلي.. "لماذا قتلته؟ أنت من مكّنهما منه.. لماذا بُحتَ لهما بصحبتك له؟".

ألهذا الحدّ أنت مهمّ جدا عند أحمد وسلاف؟ ألحدّ إقدامهما على قتل النادل؟ هل سيتقاسمان خدماتك أم يتقاتلان من أجل الظفر بك؟ ومن يدري، ربّما هما مَسلَكان لطريق واحدة؟

أن تنتقل من التفكير في حماية النادل من صديقين أشدّ غباء من التفكير في النجاة بنفسك من الوقوع في ورطة مع عصابة تستغلّك.. كأني بك تنادي "البحر أمامك والعدوّ وراءك، وإنك أضيع من اليتيم على مائدة اللئيم"، فإما أن تموت أو تنجو من عدوّك وسلاحك في يدك، وإما أن تموت على يد عدوّك ولا سلاح في يدك.

****

كل الأمور مرتبة في نيقوسيا بأجواء كولمبيا.. الجمال العابر للمدن، الفيلات القرميدية القديمة، تراكمات التاريخ في جدرانها التي تحكي تقاطع حضارات كثيرة، رائحة الخوف، لون الغموض، الهدوء المرعب.. وفي ضيافة سلاف وأحمد، تكتسب هذه المشاهد قتامة أشدّ!..

تعود بنا السيارة نفسها التي ذهبنا بها، تحتفي سلاف في طريق العودة بوجودي، تعدني بتسليم ملف مهمّ لي بعد الوصول إلى الفندق، وتلحّ على أهمية الموضوع، يتسارع جريان الدم في عروقي وأتساءل "هل يمكنني التنازل عن الاطلاع على هذا

الملف إذا لم يكن يعنيني بشكل مباشر؟ لكن من هذا الذي يستطيع أن يلقي بهذا الرأي إلى مسامعها وأنا الذي أشغل كل المشهد عندها؟".. وتعود إلى نفسي فكرة النوايا الحسنة التي نصحني أحمد بتركها "هل يمكن أن يكون الملف لبرنامج أعمالها أو قيمتها؟ هل يضم اسم متعاملين اقتصاديين؟ هل يضم أسئلة استشارة أنا أهلٌ للإجابة عنها؟".

نصل إلى الفندق بعد ساعة من القيادة المتأنية في الطريق، أُلقِي أسئلتي عند الباب، أدُوس فوقها وأتّجه نحو الغرفة وسلاف على يساري.

– ادخل غرفتك.. لحظة وأعود لك.

تعود وفي يدها صور شمسية..

– تفضّل.. العائلة بين يديك.. أريد أن أكسب ثقتك.

أقلّب الصور، حكاية محطّات ومراحل من العمر لعائلة قد لا تكون عائلتها، أفراد كثيرون، عدا صورة الأم التي تعرّفتُ عليها، إن كانت فعلا أمها، بين الألبوم، تقمعني صورتها الصادمة وينهرني صلاح الدين من قبره.. تخفّف سلاف من حدّة الصدمة بالتدخّل..

– هذه إيميليا، أمي رفقة الأصدقاء والعائلة.. لعلّك لم تنزعج؟

أوّل مرّة أصدّق فيها سلاف، استفزازٌ صريحٌ، عرفتُ اسم الأم، وعرفتُ لأول مرّة سبب ترديد سلاف "لعنة الله عليها"..

إيميليا في القدس مع أفراد من اليهود يرتدون الطاقيات.. دون تفكير أنفعل أمامها...

– لماذا لم تخبريني بأنك يهودية؟

– لا تتسرّع.. لستُ يهودية، أبي أردني، أمي فقط هي اليهودية، وأبي لم يكن يعلم بالأمر، وعندما تفطّن لذلك تخلّى عنها.. أنا أكرهها مثلما تكره أنت اليهود.. أعرف بأنك تكرههم، ألم تلاحظ أني أحترمك؟ أنا أقول لك اليهود ولم أقل الإسرائيليين، أنا أؤمن بأن إسرائيل نبيٌّ من أنبياء الله.

– لا يهم، اسمان لمسمّى واحد.. لماذا لم تخبريني خلال مدة تعارفنا بأن أمك يهودية؟

تصمت سلاف في غير ارتباك.. ثم تضيف..

– ألا تريد أن تستريح لنبدأ العمل غدا؟ غدا نلتقي صديقي الروسيّ.. نسيتُ أن أخبرك.. القِبلة في غرفتك في هذا الاتجاه!..

وقّعت سلاف شهادة وفاتها بيديها.. ربما فضّلت المغامرة، ولكن نصيبها كان خسارة الرهان.. هكذا هو منطق القمار، قد تربح كثيرا وقد تخسر أكثر، وفي الواقع، فإن زهير نفسه كان قد مات قبل أن يستلم شهادة وفاتها ويُجهز بخنجر على عِشرة بعمر أربع سنوات ليُنهي قصّتها في أعماقه ويتخلّص من عبء حبّ بلون الخطر.. أخيرا وُلد إبراهيم الذي منح سلاف اللّعنة التي تردّدت طويلا على لسانها... نعى روحها في تأبينيّة برهبة قوارب

الموت التي تنقل المهاجرين السريّين في عرض البحار.. فجّر جثّتها على صفحات رواية كان يجمع أجزاءها في رحلته الطويلة.. نشر أطرافها على حواف الصفحات، واحتفظ بعيونها وشفتيها للمتن..

كان إبراهيم ينتقم لنفسه بكل حرفٍ يكتبه من وقفة إيميليا في ساحة المسجد الأقصى، كان يشعر أن عليه دَيْنا لصلاح الدين، ويسمع صوت قعقعة مفاتيح القدس بين يدي عمر.. ويلٌ وخزيٌ كبيران وعارٌ مات بهما أمل دنقل مازالا ينتظران الوفاء من شعوب تقرأ كل صباح أخبار الشّجب والتنديد في الجرائد الصفراء، جرائد تصنع جيلا ينظّم مؤتمرات تكلف الملايير ثم تنتهي بقرار إدانة يتبعه الاستمرار في التطبيع.. صحف تصنع أقلاما تجيد النّحيب ولا تدفع دبّابة للخروج من ثكنتها، أقلام صنعت جنرالات النياشين الذين لا يستطيعون وضع خطّة لحرب أسبوع.. جنرالات تفتتح مناوراتها العسكرية بالذخيرة الحية بعبارة "العدوّ على بُعد عشر كلومترات منّا"، في زمن الصواريخ العابرة للقارات التي يزيد مداها عن عشرة آلاف كلومتر.. عصر النّقر على زرٍّ افتراضي لتفجير قارّة بأكملها!.

يتنفّس الصبح عبر نافذة الفندق القديمة، والخيبة مازالت جاثمة على صدر إبراهيم، تقلّبه على ظهره في وضعية تثبيت حتى لا يتحرّك، تكبّل يديه وتطوّق عنقه وتشلّ عقله عن التفكير في أيّة محاولة للمقاومة، تكاد تقنعه بالاستسلام..

تسقط يداه وهما تحاولان التوكّأ على السرير للنهوض، تدور في عقله النائم فكرة عن جنيّ المضاجع.. يتأكّد أنه بوتلّيس، فكرة مُرعبة، لكن هذا الجنّي له تاريخ طويل في ركوب النائمين العرب، وكلّما حاولوا الاستيقاظ، يسبقهم بقرار الحصار عند الشروع فيه، رغم أنه ينتهي دائما بالفشل.. حصار بعمر ثوانٍ، يتبعه صراخ ثم تحرّرٌ من سلطان بوتلّيس.. وعدٌ طال عمره بلقاء غير مرغوب.. يتساءل إبراهيم في غفوته "هل يوجد فعلا جنيّ بوتليس؟ هل يحدث الشعور به في اليقظة أم في مرحلة النوم أم في مرحلة بينهما؟".

يرنّ هاتف إبراهيم، ليس اتصالا، هذه نغمة المنبّه.. حان وقت الخروج للموعد.. سلاف تنتظر أمام مكتب الاستقبال في الفندق.. الوجهة مجهولة، تماما مثل العمل الجديد الذي ينتظر إبراهيم.. رائحة الكاجيي في كلّ زاوية.. خلف كل ابتسامة وخلف كل نظرة صارمة.. يتساءل إبراهيم "هل هذه الترتيبات من طقوس العمل الجديد؟"، يتعلّق رجاؤه بأن لا يكون للموساد مكان في هذه الزاوية الضيّقة من قلبه.

التوغّل في قبرص اليونانية باتجاه بافوس جنوبا مع فتاة ملغّمة بأنوثتها وغموضها يشبه حالة نزيف حادّ يسابقك الأجل، ينظر إبراهيم عبر نافذة السيارة إلى نفسه وهو يهوي من قمّة جبل صخريّ إلى منتهى وادٍ عميق يغطّ فيه الضباب في نوم عميق ويتمدّد كأنه مارد فانوس علاء الدين، ويطير البوم فيه فوق

رأسه، بينما تتحرّك عروق أشجار الزقوم نحوه.. تحاصره من كل جهة.. تسأله سلاف..

– أطلتَ الصمتَ، هل تستعدّ لمكروهٍ؟

– لا أدري، أنا أتجه نحو المجهول.. أنت وحدك تعرفين إلى أين نحن ذاهبان!.

– أخبرتك، سنلتقي صديقا روسيا.. المسافة بين بافوس ونيقوسيا طويلة، ربما لن تعود معي، عليك أن تبدأ العمل معه مباشرة، ويمكنك زيارتي عند الانتهاء من كل مهمّة، لن يتغيّر شيء في نفسي نحوك..

تصمتُ ثم تعاود السؤال..

– إبراهيم.. هل تحبّني؟

ثم ترفع الحرج بتعليق قصير..

– صديقي خالد كان يقول لي إنه سيُضحّي من أجلي.. كان يردّد بلهجة منطقة الغرب عندكم "نموت عليك"..

– يضحك إبراهيم بصوت عالٍ وهو يمدّ رجليه في السيارة..

– كل الشعب الجزائريّ كان يردّد هذه الكلمة وهو يجوب شوارع المدن في مسيرات عارمة.. "عليها نحيا وعليها نموت وفي سبيلها نلقى الله"، لكنه تخلّى عن حبّها ونسي فكرة الموت من أجلها.. الحبّ عندنا نحن الجزائريون تُحاك دسائسه في الظلام، تماما مثل السياسة.. تناسبه الغرف المظلمة، نحن نعتقد بأن الحبّ والسياسة أغصان لشجرة واحدة، جذعها الفحشاء..

وفروعها الفضائح والأبناء غير الشرعيين، لذلك نلجأ إلى تقليم الأغصان التي ترتفع وتصبح عالية مكشوفة إن لم تكسرها الرياح والأعاصير.

– لا تعتقد بأني لا أعرف عمّا تتحدّث، أنا أفهم السياسة جيّدا، أنت تقارن بين كلام خالد وشعار حزب محظور في بلادكم..

– في بلدانكم لا توجد أحزاب أصلا، وبالنتيجة أنتم محرومون من المقارنة.. أنتم محرومون من استخدام عقولكم، هذه مزية نفوقكم بها.. أهمّ من السياسة والحبّ عندي وأنت تشرعين في التخلّص مني أن تخبريني بما أنا مقبل عليه..

هل تعرفين هذا الصديق الروسيّ جيّدا؟

– لا تُلق للأمر بالاً.. فقط تجنّب الحديث عن حياتك وتقديم معلومات عن نفسك، يوري سيكتفي بما أخبرته عنك.

– اسمه يوري! ماذا أخبرته عنّي؟

– أخبرته أنك بحاجة إلى العمل وتحبّ المال ووفيٌّ.. ثلاثة لا يهم شيء بعدها.. أرجو أن تكسب ثقته، سيقدّم لك عربون مودّة في اللقاء الأول بينكما.. مبلغ من المال لتغطّي به مصروفك، وإذا لم يكفك اتصل بي لأتدبّر الأمر.

– ماذا تعرفين عن عمل يوري؟

– يوري تاجر أسلحة، هذا النشاط ليس خطيرا هنا، لكن لا يتم الأمر في العلن، يجب التستّر عليه، سوف تتم التجارة

خارج قبرص، وهو يتدبّر أمر النقل والسفر، يملك علاقات واسعة.. اخترق جهات كثيرة وهو يستغلّ نفوذه.. أصدقاؤه يستفيدون من تجارته، لكل صديق مصلحته المختلفة عن الآخر.. منطق المصلحة يوفّر له غطاء الحماية والاستمرار، أخبرتك بالموضوع حتى لا تندهش أو تتفاجأ عندما تلتقي به، يجب أن تظهر أمامه متّزنا وواثقا من نفسك.

سلاف التي تعرف كيف تدير الحرب النفسية وتفهم كثيرا في منطق الأمر الواقع، لم تفاجئ إبراهيم.. الرجل الذي خرج من رحم الأزمات وتعلّم كيف يتأقلم حين يكون المنعرج خطيرا.. كانت واثقة بأنه لن يخالف تقديراتها في شخصيته، وكانت واثقة بأنها وجّهت له ما يكفي من الرسائل لكي يعرف بأن العطاء الذي لا مقابل له ليس موجودا عند البشر.. تكاد سلاف تسأل إبراهيم: هل مازال سقف توقّعاتك عني أعلى مما رأيت حتى هذه اللحظة؟ لكنها تلجم السؤال في حلقها وتفضّل أن يكون ردّ الفعل منه بغير مزيدٍ من الإثارة أو الرسائل.

صاحب البنية القوية والعضلات المفتولة يلوّح من نافذة سيارته، تُدرك بمجرّد رؤيته أنه واحد من رجال مجنون آخر يقود العصابة.. ملامح يوري لا تُعطي الانطباع بأنه الرئيس..

يفكّر إبراهيم، بإيعاز من نظرات سلاف بأن الوقت الذي سيقضيه مع يوري سيكون خطيرا ولو لم يتجاوز ساعة واحدة وأنه بمثابة الضغط على زناد بندقية.. إذا تمّ، فإنه لا يبقى مجال

للتراجع وإعادة النظر في القرار.. وقد يتحوّل موضوع تجارة السلاح إلى أمرٍ تافهٍ أمام خطورة جماعة يوري نفسها..

يسمع إبراهيم صدى صوت داخله يوسوس له بأن فكرة العمل في تجارة السلاح مجرّد بالون اختبار، فربما خلف هذه الجماعة أمور أشدّ خطورة، ربما تصل إلى حدّ التدخّل المباشر في الأمور السياسية لبعض الدول، وربما يكون يوري يدا طويلة لجهاز مخابرات يحرّك دُمًى في مسرح دوليّ.. ربما تكون هذه الجماعة شبكة دولية لكل نشاط إجرامي يمنعه القانون!.

تشقّ سلاف الشارع الرئيسيّ عائدة إلى نيقوسيا دون أن يترك فراق إبراهيم أيّ أثر في وجهها.. كل ما قامت به هي أنها مرّرته إلى حلقة من حلقات شبكتها السرية مثلما تعوّدت تمرير فأرة حاسوبها من نافذة إلكترونية إلى أخرى.. فكرة تطعن في أعمق نقطة من جرح إبراهيم.. سلاف الممشوقة بقامة أبيها المقتول غدرا، تتداول الرجال مثل قطعة نقدية تحملها يد بائع إلى زبون عابر.

يلطّف يوري جوّ اللقاء في سيارته وهي تنطلق بكلمة روسية بعد مصافحة إبراهيم "مينيا زاغوت يوري".. يبتسم شيخ يرافقهما وهو يقول بالعربية "إنه يحيّيك، هو يقول لك اسمي يوري".

– نعم.. أنا إبراهيم، سعيد بلقائك.. هل سنقصد مكانا بعيدا؟

– نوعا ما.. حاول أن ترتاح، عندما نصل سنناقش أمورا كثيرة..

بالمناسبة.. أنت لا تتقن الروسية ولا الإنجليزية، أخبرتنا سلاف بأن لسانك مطواعٌ في الفرنسية، ولكن بكل أسف، الفرنسية لا تفيدك في وظيفتك معنا.. أحيانا داخل باريس نفسها لا تفيدك الفرنسية، تمنيتُ لو أنك تتقن الإسبانية، فهي لغة تنقذك في مواقف كثيرة في أوروبا الشرقية وأمريكا اللاتينية.

يكتفي يوري بالصمت وتقليب النظر، بينما يشتدّ حرج إبراهيم.. لحسن حظه أن وجد لسانا عربيا ينقذه من هذه الورطة.. حتى هذه اللحظات، نادل المطعم هو ثاني شخص قريب منه ويستطيع التفاهم معه، أما سلاف فهي الشخص الوحيد الذي لا يمكن الحديث عن فكرة التفاهم من عدمها معها.. انسابَت مثل الماء بين أصابعه.. أو بدّدته هي مثل بخار الماء في كفّها وهي تعرضها للشمس في يوم حار على شاطئ البحر.

يزداد تعلّق إبراهيم بنادل المطعم، الوجه الوحيد البريء الذي يشبهه.. يتساءل في نفسه "هل تعارفت روحينا فتآلفتا؟".. ثم يشعر بوخز في ساقه.. كأنه عتابٌ لأنه ضيّع فرصة التقرّب منه.. يسأل رفيق يوري "هل يطول سفرنا؟ هل أستطيع اقتطاع وقت من العمل للعودة إلى نيقوسيا؟".

– لستَ مهتما بالأجر ولا بطبيعة عملك.. كل همّك أن تعود إلى نيقوسيا.. هل تريد أن تصبح مواطنا قبرصيا؟ أم تريد التواجد قرب سلاف؟..

يستغرق الشيخ في ضحك هستيريّ..

تشعر باليُتم ماثلا بين عينيك.. تتفقّد قلبك.. تحاول أن تخفي ندما كبيرا.. لكن لسانك يفضحك..

يردّد إبراهيم "هي مجرّد صديق، ليست أوّل شخص عرفته وليست الأخير، للتوّ بدأنا مشوارا بيننا..".

بينما ينخرك عتاب شديد لأنك تعلّقت بامرأة في مثل سنّك ومنحتها يد الطفل الصغير..

يقول قلبك شيئا ويرغب عقلك آخر.. تنفجر خريطة قبرص بين عينيك أمام كلمة وطن، وتغرق شوارع نيقوسيا ومبانيها واحدا تلو الآخر، فاسحة المجال لمشاهد في شوارع سطيف؛ من الشمينو إلى بومرشي إلى صامو.. تسمع أصوات الشباب الباعة في أسواق العلمة الراقية وهم يعرضون سلعهم على حافة الطريق للمارّة، يزداد جبل تيلّة في قنزات شموخا في نفسك، تتألّق عندك مناظر ولبان الخلاّبة في بني عزيز.. يتعاظم خطر بُعدك عن الوطن ويشتدّ لهيب الحرقة إليه.. صدمة بحجم بركان تخمد حِممه عند تذكّر النادل.. قد لا يستطيع مساعدتك، لكنه يصلح دليلا لخطوات قدميك في أرض، كل شبر ووجه فيها مفخّخ.

****

أقلّ من ساعة، تتوقف السيارة عند باب بيت بسيط، لا أحد في الانتظار، يبدو المكان محطّة عبور للراحة.. يُدرك المساء إبراهيم ويوري.. يتم إعداد وجبة سريعة في مطبخ المنزل، ويضبط يوري موعد الاجتماع ساعة بعد العشاء.

الجلسة قصيرة، أقل من خمس دقائق، لأن الموضوع ليس مفتوحا للنقاش، تعليمات صارمة ومهام محدّدة، والمطلوب هو تنفيذ التعليمات بدقة، وأي رغبة في التغيير تستلزم الاتصال بيوري وطلب إذنه..

– بعد ثلاثة أيام ستكون وثائق سفرك جاهزة، ستحتفظ بالإسم الذي اخترته لنفسك، تُعرّف به نفسك للجميع، سيكون مدوّنا في جواز سفرك وبقية الوثائق المتعلّقة بالتنقّل والإقامة.. وغدا يلتحق بكما صديق آخر.. هل لديك سؤال أو طلب؟

– لا سؤال

– وِجهَتُك ستكون سوريا في غضون أقلّ من أسبوعٍ، وستعرف ما المطلوب منك القيام به فيها، لن تطول الإقامة.. التزم بتوجيهات رفاقك.

يرتشف إبراهيم قهوته بإحدى المقاهي الشعبية في منتصف النهار بتوقيت العاصمة دمشق.. فقد وصلت الطائرة في وقت متأخّر عن موعد هبوطها.. غرفة النزل محجوزة.. يصله اتصال يخبره بأن الغرفة على بُعد كلومترات فقط من المطار، ويوصيه

بالتزام موعد اليوم الموالي في التاسعة صباحا عند مطعم مشاوي أبو ليلى.

دمشق الأموية مازالت تفوح برائحة الخلفاء وتنتصب بنخوة العروبة، وفي زاوية منها، مازال صوت المؤذن يتسرّب عبر الأزقة من الجامع الأموي ليشقّ طريقه إلى مسامع السكان وعابري السبيل، مخترقا الكنائس التي تجاوره دون أن يكسر لها حرمة.. تتعجّب لذلك التسامح الذي يظهر في هدوء سكانها وهم في غدوة ورواح إلى بيوتهم.. تتعجّب لذلك التسامح الذي تتعطّر به ألسنتهم وهم يتبادلون السلام.. وتظن أن السكينة نزلت عليهم من السماء وتحرصها ملائكة الرحمان.

تهمس السكينة في أذن إبراهيم "عد إلى غرفتك في النزل.. دمشق تمنحك هذا الوطن الصغير قبل أن تعود إلى وطنك الكبير.. حافظ على هذه الأمانة".

تخيّم أجواء الحبّ على مقام إبراهيم، ويعكّر سببُ وجوده صَفوَ روحه "تُرى؛ لم أنا هنا؟.. هل سيحدث ما هو خيانة للأمانة؟".

تمضي ليلة بأمنها وأمانها في كنف مهد الأمويين.. يستيقظ إبراهيم وعهد بني العباس لم يحلّ.. يتوجّه إلى موعده، يأخذ لنفسه زاوية في مطعم مشاوي أبو ليلى.. عادات فطور الصباح هنا تختلف عن عادات الفطور في الجزائر، سيكون الرغيف التقليديّ وزيت الزيتون حاضرين على الطاولة.. الغائب الوحيد

عن هذه الطاولة هو الشخص الذي جاء من قبرص من أجل مقابلته..

تتوقّف يد إبراهيم عن الحركة وهي تتلمّس الرغيف في الطبق، ويستمرّ محدّقا في اتجاه الباب.. شبح أم لعنة تطارده!.. أم شخص آخر يشبهها!.

تبتسم في وجهه..

– هل توقّف قلبك؟ هل أطلب لك الطبيب؟

– لكن...آآآ... أنتِ في نيقوسيا.. تركتُك هناك.. أو تركتني أنت في بافوس؟ لماذا أنت هنا؟ هل أنت التي اتصلت بي البارحة وضبطت الموعد؟

– مهلا.. توقف عن التعجّب.. هل الأمر إلى هذه الدرجة من الغرابة؟

– أنت هي.. سلاف أم أختها؟!

– أنت تعرف أني لا أملك أختا.. ليس جديدا عليك هذا..

– هل سيلتحق بك شخص آخر؟

تضحك سلاف!..

– هل نفتح الفيسبوك لنتواصل كما تعوّدنا من أجل تجاوز هذه الصدمة؟.. تناول فطورك.. سنخرج بعد قليل..

– مازلنا نخرج أيضا؟!.. خرجنا كثيرا وتحدّثنا أكثر ومازالت دار لقمان على حالها.. لم أفهم شيئا!

– لم نخرج أبدا.. نحن تحدثنا كثيرا فقط.. مارك زوكربيرغ أرادنا أن نبقى أسرى مصالحه، تعمّد أن يثير فينا الشوق لنتعلّق بالفيسبوك، بينما يجني هو الملايير.. مارك زوكربيرغ يعرف عنّا أكثر مما نعرف عن أنفسنا، لذلك يمارس علينا القمع بينما نزداد نحن به تعلّقا..

– لا أريد أن أعرف شيئا عن زوكربيرغ.. أريد أن أعرفك أنت.. هل أنت أردنية.. ماذا تفعلين هنا في سوريا..

– انتبه.. نحن لا نقول كل شيء.. هذا مكان عموميّ.. هيّا لنخرج.

ترسانة من الأسئلة.. جيوش مصفوفة من الكلمات القبيحة والشتائم مرصوفة في خزان رشاشك، ترغب في إعطاء إشارة إطلاقها، لكنك خبير بالكمائن، وتعرف بأنّك محاصر في صحراء خالية من كل جانب، ولن تتمكّن من النجاة لو بادرت بإطلاق رصاصة واحدة، بل ستسقط قتيلا بمجرّد توجيه أصبعك نحو الزناد.. وتفقد حياتك في معركة تعرف بأن خوضها يحتاج إلى موقع استراتيجي وتوقيت دقيق، وظهر يحميك ويد تساعدك.. حرب الشوارع وحرب العصابات من نصيب المافيا ولا تشرّفك، أما المعارك الكبيرة فهي من اختصاص الجيوش العظيمة والمنظمة، ولا نصيب لك بواحد منهما.. بمفردك لا تستطيع الزيادة خطوة عن النقاش، وشيءٌ من الشّجب والتنديد، تلك ممارسة تعوّدت عليها في سياسات الحكومات

العربية جميعا، وقد يكون شرفا لك أن تتبنّى مثلها.. في أقلّ الأحوال أنت فردٌ يبادر بتصرّف دولة تتحرّك تحت غطاء دبلوماسية عظيمة.

تهون في نفسك قرارات كنت تراها عظيمة، بمجرّد أن تجد نفسك أمام مواجهات، تلقّن فيها خصومك دروسا في مستوى قرارات جامعة الدول العربية.. تمشي غريبا في وطن ليس لك.. تدخله باسم مزوّر، ورغم ذلك تتدافع هموم أمة بأكملها في قلبك وعقلك وتفشل في تهدئة نفسك لنسيانها أو تأجيل الخوض فيها.. تفتح جبهات حرب وأنت تحت وقع القصف من كلّ جهة.. هذه هي مقاومة المجانين!...

يسبقك "النّيف" الجزائري "والتغنّانت" الشاوية إلى لسانك وأنت تدخل منزل سلاف..

– فلسطين على مرمى حجر من هنا، لو كانت لنا حدود معها حسمنا الأمر تجاه الاحتلال.. تتحرّر أو نزول جميعا من خريطة العالم.

تتغلغل سلاف في أدغال فكرة افتكّتها من فم أسدٍ، وتغوص في أعماق غابات أشدّ كثافة من غابات الأمازون وغابات إفريقيا.. تسلك متاهة لا تؤدي إلى مخرج...

– نحن الذين تخلّينا عن الجهاد، الذلّ الذي نعيشه ثمن رضانا بالزرع.

– فلسطين أرض عربية، أقام فيها اليهود سبعين سنة فقط في عهد النبيّ داود.. تعاقبت شعوب كثيرة على هذه الأرض ولكنها لم تزعم بأيّ حقّ لها فيها.. هي اكتفت بوصف وجودها احتلالا، إلا الإسرائيليون اليوم!..

يخيّم جوّ من الصمت.. أوصل كل واحد رسائله، فهمت سلاف أنها تقبع خارج القلب وبعيدا عن العقل... أدركت أنها مازالت لم تراوح مكانها رغم أطنان الرسائل الإلكترونية والكلومترات التي قطعتها، وفشلت لأول مرة في الظهور بمظهر القويّ، عادت الأنثى إلى سريرها وتركت العرين للأسد..

ترتبِك.. تتجنّب النظر إلى وجه إبراهيم، تتدلّى عيناها كعنقود عنب أثقلته حبّاته، تسرع إلى الخزانة وتأخذ كتابا.. يراه إبراهيم بحجم رواية بدأ يكتبها عندما ركب سيارة أحمد..

– تفضّل هذا الكتاب، احتفظ به، وإذا شئت أن تقرأه فهو ممتع.. عندما تصل إلى بافوس سلّمه ليوري مع القرص المضغوط، وفي هذا الصندوق الصغير يوجد أنبوب اختبار يحتوي على كمية من سمّ النحل، تحتاج إليه مخابر الطب، حافظ عليه فهو باهض الثمن، وإذا واجهت مشكلا في المطار، اتصل بيوري.. إذا استطعت أن تخفيه عن الشرطة والجمارك سيكون أفضل، فهو مادة خطيرة وقد لا يتعرّفون عليها فيؤخّرون خروجك إلى حين وصول يوري.. إجراءات التفتيش في مطار دمشق ليست صارمة، ستغادر بكل سهولة.

ليلة أخرى في دمشق، مشهد عناق طويل بين روحين؛ روح إنسان وروح وطن.. يدرك إبراهيم أن الفرق بين البلدين كالفرق بين الحياة والموت، بين الحبّ والبغض، بين الصديق والعدوّ.. لكن، ما باليد حيلة، فآخر الدواء الكيّ...

وتحمله الشمس مع أوّل خيط نور ترسله إلى الأرض، يعود بعد سفر قصير وفي قلبه شعاعٌ من وحي نادل المطعم.. يقرّر أن تكون أول فرصة في اتجاه البحث عنه.. يعجّل بإيصال الكتاب والقرص وأنبوب الاختبار.. يُحيّيه يوري على الالتزام بالمطلوب واحترام التوجيهات، ويضرب له موعدا لمهمة جديدة نحو الشمال.. الوجهة هذه المرّة مختلفة، فقد وعده يوري بأن يمكّنه من فتح ذراعيه على قلب أوروبا عبر بوابة اليونان، ثم التوجّه نحو بلغاريا.. يحلم إبراهيم وهو يستمع إلى الخبر باختراق بلغاريا ورمي المنشفة أمام قدمي يوري عند الوصول إلى حدود ألبانيا.. يشتدّ عطشه ليبلّغه وصيّة لسلاف، يوقّعها بكلمات داكنة "باي باي سلاف.. سأفجّر الجسر الرابط بيننا.. لا داعي للتفكير في اللّحاق بي.. هذا ثمن تحلّلك من كل المواثيق معي".

أستيقظ صباح اليوم الموالي على خبر مفاجئ.. تتصل بي سلاف..

– ابق في الفندق ولا تغادر إلى أن يصلك اتصال جديد!

– لماذا.. هل حدث أمر طارئ؟

– نعم، يوري لقيَ مصرعه في حادث مرور البارحة.. ستتغيّر أمور كثيرة

– مات في حادث مرور؟

كدتُ أتسرّع وأقول هل "نفقَ في حادث مرور؟.. العاقبة لك"، ثم غيّرتُ الفكرة

– يعني مات ميتة طبيعة؟ لم يُقتل؟

تسكتُ وهي تؤكّد.. "اصبر إلى وقت آخر حين نلتقي وستعرف كل شيء بالتفصيل..".

يمرّ طيف النادل بين عينيّ، أردّد في نفسي "مصائب قوم عند قوم فوائد".

هذه فرصتي للتحرّك بعيدا عن الأنظار، في الوقت الذي ينشغل فيه الجميع بأمر هذا الموت، وأخرج مستعجلا.. أحاول أن أتّبع الطريق نفسها التي سلكتها مع أحمد حين عدنا من ذلك المطعم، يحالفني الحظ في قرب المكان من الفندق، وتتراءى أمام عينيّ ملامح المكان.. أتأكد بأنه هو بالضبط، لكن الوقت مبكّر، ربما عليّ أن أعود في وقت لاحق حين يبدأ الزبائن بالدخول للغداء، لا يليق بي أن أدخل لأسأل عنه دون مناسبة أو تعارف بيننا.. عليّ أن أحسن اقتناص الفرص، سيكون دخولي من أجل تناول الغداء أفضل فرصة للتقرّب من النادل.

أجلس بعيدا عن المطعم في حديقة عامة، أشرع في التحضير لمقابلة النادل، أتساءل إن كانت ظروف العمل وكثرة الزبائن

يسمحان له بالحديث معي "من أين أبدأ الكلام؟ ماهي الأسئلة التي أطرحها عليه؟ هل أدعوه إلى لقاء تقارب خارج أوقات عمله؟".

أتحرّك مستعجلا نحو المطعم، فالتوقيت مناسب لدخول الزبائن، ثم إن أول الوقت يمنحني الفرصة لأجد المطعم بعدد قليل منهم..

لحسن الحظ، هو أوّل شخص ألتقي به في الداخل.. يسبقني بالتحية، تذكّر وجهي، واضح ذلك من كلامه بالعربية.

– سعيدٌ بلقائك.. هل يمكنني أن أعرف اسمك؟

– يمكنك مناداتي نوزاد، تفضل بالجلوس.

– شكرا نوزاد.. أنا إبراهيم، سررتُ بلقائك مرة أخرى، لكن اعذرني، فأسماء الأطباق التي بين يديّ غريبة عني.. لا أستطيع معرفة مكونات الطبق وطريقة طبخه من اسمه، هل يمكن أن تساعدني وتشرح لي؟

– أكيد، هل يمكنني أن أعرف بلادك بعد إذنك؟

– نعم، أنا من الجزائر.

– يا أهلا.. بلاد الثورة والشهداء، وطن الرجال، هذا شرف لي.. لا يوجد في أطباقنا شيء غريب، نختلف فقط في شكل الطبق، نحن نتقاسم ثقافة غذائية متقاربة.. مثلا طبق الجوانح معروف عندكم، هذه أكلة شامية تحتوي على جناح الدجاج المشوي على الفحم.

– جيّد.. ليكن هذا ما أطلبه؟

– هل تقدمون الأطباق الشامية فقط؟

– هي جزء من مكونات أطباقنا، يُقبل عليها السواح الأتراك والعرب، رغم قلّتهم.

– لم تخبرني.. ماهي بلادك؟

– أنا من سوريا

– بلاد أهل العزّ والشرف.. لكن ما معنى اسمك؟ لم أفهمه؟

– فعلا يبدو غريبا.. أنا من أصل كردي

– أهلا بأخي.. أحفاد صلاح الدين والرجال الأبطال

يغمرني نوزاد بلطفه وطيبته.. لم يخطئ ظنّي به، كتاب مفتوح، تستطيع أن تقرأ فيه كل شيء، ليس في نفسه شيء من الحيلة أو المكر.. يُلقي بلسانه أيّ كلمة تخطر على باله.. يُجيب بكلّ عفوية.. منحني علامة كاملة تشفع لي بطلب الصداقة ومزيد من التعارف.

أتقدّم لدفع ثمن الوجبة، وأستأذن نوزاد.

– ربما تطول إقامتي هنا، إذا كنت لا تمانع فأنا أرغب في بناء جسر صداقة بيننا قبل أن أغادر.

– طبعا.. هذا شرف لي، أنا أقيم قريبا من هذا المطعم، بعد الرابعة مساءً سأكون متحرّرا من أي التزام، يمكنك المجيء إلى هنا وسأعرّفك بالمكان جيدا.. أنت تحتاج إلى مرشد سياحيّ.. سأكون دليلك.

يختصر نوزاد المسافات الطويلة ويفتح الحديث مباشرة.. هذا الرجل لا يوجد لديه ما يخفيه.. صداقته آمنة، والأهم من ذلك أنه سيقدّم لي توجيهات عملية في التعامل والتأقلم مع الناس هنا.. الآن بدأت الحياة تبتسم في وجهي.

يغلق اتصال سلاف بي الابتسامة في وجهي.. أتردّد في لمس موضع نقرة الردّ على المكالمة.. يلاحظ نوزاد ارتباكي، فأستسمحه المغادرة على أمل اللقاء في موعد قريب.. يرن الهاتف مرة ثانية..

– أهلا سلاف.. مرحبا.. ما هذا الإلحاح في الاتصال؟

– أين أنت.. بحثتُ عنك في الغرفة وفي أرجاء الفندق، ولكن لا أثر لك!

– أنا قادم.. قمتُ بفسحة قصيرة في الشوارع المجاورة، لحظة فقط وأصل إليك.. أرجو أن لا يكون الأمر مستعجلا..

– الأمر مستعجل وخطير.. أنت مطلوب على جناح السرعة!..

قصّة الموت هذه.. من أيّ باب يمكن أن يدخل الخطر إليّ عبرها.. يوري، هذا الرجل المجهول الذي قدمته سلاف لي بأنه تاجر ومغامر ويملك نفوذا وشبكة علاقات.. هل سيفتح لي بابا نحو عالم كولومبي.. هل تم اغتياله في حادث مفتعل أم مات في حادث طبيعي؟ هل يمكن أن تكون إحدى شبكات المافيا هي

من قتلته بسبب حسابات بينها؟ هل هو فعلا مافيا أم عميل استخبارات مكلّف باختراق المافيا..

في هذه اللحظات لا يربطني بالاسم يوري سوى فكرة الكاجيبي، المخابرات الروسية التي صوّرتها هوليود بأنها استخبارات مافيوية، مهمّتها تغطية ضعف الاقتصاد الروسي بإمدادات السلاح للجماعات المتطرّفة والانقلابيين في أوروبا الشرقية وإفريقيا، وفي آسيا، توازيا مع إمدادات السلاح للدول الحليفة ضمن الاتفاقيات الرسمية المعلنة... مستنقع أوروبا الشرقية كلها لا يختلف عن مستنقع إفريقيا.. اللعنة تطاردك أينما تحلّ.. لا تدري من أين تقع عليك المشاكل.. وأسوء ما في هذه المشاكل أن يتم اغتيالك في زاوية مظلمة دون أن يعرف بأمرك أحد، أو أن تعتقلك السلطات الرسمية ثم تعيدك سجينا إلى وطنك، مُثقلا بتُهَم كنت في غنى عنها، وكان بإمكانك أن تبقى في وطنك حرّا طليقا تصارع الفقر والرعب، ولو اقتضى الأمر السجن، لكن ليس سجن مقبوضٍ عليه ضمن شبكات دولية تعيث فسادا في كل مستنقعات الجريمة..

****

تصرّ سلاف للمرة الثالثة على طلبي.. أتجنّب الردّ عليها.. تتسارع خطواتي.. الفندق مازال بعيدا، وفجأة تقطع الطريق أمامي وتناديني للركوب معها، في مشهد مسرّب من فيلم أكشن.. هذا ما يسمى عندنا "تجيني يا لبلا ولا نجيك".

– أخبرتني بأنك قريب، هل تخطئ في تقدير المسافات؟

– لست في حالة سُكر حتى أعجز عن تقدير المسافة، عندنا في الصحراء يقولون لك سنقوم بجولة سريعة إلى مكان قريب ونعود، ليس أكثر من مائتي كلومتر!.

– أنت كثير الهزل.. أم تجرّب التهرّب حين تدرك بأن الموقف جادّ؟

– لماذا أنت مرعوبة؟ هل يوري من أقاربك؟

– لا.. ولكن الموضوع ليس بالسهولة التي تعتقدها!

– غير أن يوري مات في حادث مرور.. هل يوجد أمر آخر؟

– سنتوجه إلى مكتبي.. هناك ستعرف.

كان واضحا أني أبالغ كثيرا في حسن الظن وآخذ الأمور ببساطة، وإلا ماكنت لأقطع كل هذه المسافات عُمرا في التعلّق بفتاة لا أريد منها شيئا، وتتخذ الموقف ذاته معي.. كان بيننا كلام لم نقله لبعضنا.. تركَت لي حجم المسافة نفسها التي تركتُها لها صمتا، واتفقنا على سرّ لم نبح به لبعضنا.. العودة إلى جادّة العقل هي عين البصيرة بعد أن زلّ البصر وصرتُ بين يديها مثل رهينة ترجو الرحمة من مختطفها.

تصل نبضات قلبي المفزوع إلى المكتب قبلي.. ترتفع دقاته صوتا وتزداد نبضا.. يسمع ذئب سلاف خفقاته.. يهرول نحوي وهو يكشّر عن أنيابه ويكشف مخالبه استعدادا لغرسها في

مقلتين سوداوين سواد زيتون الأمازيغ.. ولا يبالي بضراوة وجه يشقّه أنف يطاول بشموخه جبال الأرض.. أنف رغمت منه أنوف الفرنسيين منذ أن وطئت سواحل سيدي فرج، حتى غادرتها مكسورة الأنف.. يقطع صوت مكبح اليد عواء الذئب في رأسي، وتلتقط أذناي صوتا بشريا عذبا يلاطف نسمات الجو..

– هل نمتَ؟

– لا نامت أعين الجبناء!

تضحك سلاف..

– أنت مثقف جدا، هذه العبارة قالها خالد بن الوليد وهو على فراش الموت، كان يردّد "ليس في هذا الجسد مكان لم يخترقه رمح أو تدخله طعنة سيف، ورغم ذلك أموت على الفراش.. الجبن لا يحفظ الأرواح ولا يزيد الأعمار".

تشعر بأنك تهيئ الظروف المناسبة لخصومك، تماما مثلما تعوّدت أن تفعل لأصدقائك.. عندما تمنح العدوّ ما هو حق للصديق، فأنذر بقرب نهايتك..

خطوات خلف الباب وتحسم أمرا تأخّر حسمه.. تَعِيه ولا تعرفه، تنبز النهاية في أذنيك "حان وقت رفع الأقنعة"، لذلك تتساءل في نفسك: هل أنت مستعدّ كفاية لدخول هذا المكتب؟ واضح أن القضية قضية كلام، من الحكمة أن لا تصدّقه، لكن من الغباء أن تكذّبه أو تقلّل من خطورته.

– من هنا إبراهيم.. تفضّل.. يجب أن تعرف بأن يوري مات مقتولا.. ألقاه شخصان كان قد تواعد معهما من أعلى الجسر.. لم نعرف من هما ولا سبب إلقائه من أعلى الجسر، ولأننا أصدقاؤه، فعلينا أن نكون حذرين.. ربما نحن تحت المراقبة!.

– لماذا نحن تحت المراقبة؟ من يراقبنا؟

– هذا بالضبط ما طلبتك لأجله، توجد أمور يجب أن تعرفها ولا يمكن أن نؤخّرها إلى وقت لاحق.. عليك أن تتدبّر شؤونك ولو بالحِيطة والحذر!.

– لم أفهم! ممّ أحذر؟ وماذا أفعل؟ هل الأمر خطير جدا؟ ثم ما علاقتي بهذا الخطر؟

– سنعود إلى الماضي قليلا.. أنت زهير، قبل أن تصبح إبراهيم، كان عليك أن تعرف أشياء كثيرة.. صرامة شخصيتك وتهرّبك أحيانا وحرصي على المحافظة على صداقتنا منعتني من فتح الموضوع معك!..

– دعكِ من هذه المقدّمات وهذا التهويل.. أنت دائما تبالغين وتضخّمين الأمور.

– لا تتهرّب.. أنت تفهمني وتحاول تجنّب سماعي كعادتك..

تفتح درج المكتب وتخرج أوراقا مطبوعة ومجلات قديمة

– تفضل، لا تقل شيئا.. اقرأ وبعدها نتحدّث...

مجرّد قراءة مصوّرة لبعض الفقرات في هذه الصفحة وفي تلك، ثم في الأخرى للعناوين الكبيرة وأسماء الكتّاب كانت كافية لتقديم إجابة عاجلة.

– هذه فتاوى موقّعة بأسماء أغلبها غير معروف، أستثني منها اسما واحدا، يقولون عن صاحبه بأنه رجل شديد الحماس ومتسرّع الحكم.

– من هو؟

– عبد الله عزام، هو أوّل العرب الأفغان ومعروف بفتاواه الجهادية، هو ليس عالما، هو مجرّد داعية متحمّس، هذا ما يُقال عنه؟

– من قال عنه هذا الكلام؟

– قاله كثير من المهتمّين بشؤون الدعوة الدينية، هذا الرجل مشهور جدا، لكن مشهور أيضا بأنه قليل علمٍ...

ما يوجد في هذه الأوراق يا سلاف كلام عام، من الصعب نسبته إلى الدين، وهذه الصفحات في الثناء على تنظيم القاعدة، وهذا المقال الذي كتبه بن لادن أو كتبه له شخص آخر ليس شيئا.. بن لادن ليس عالما.

لم تكن مسافة الصدمة بعيدة عن التوقّع، كل مستحيل كان ممكنا مع هذه الآنسة، ورغم ذلك فسلاف مازالت لم تقل شيئا.. فتاة في مثل جمالها، كانت ترسل لي صورها الفاتنة منذ

أربع سنوات لا يمكن أن تكون من تنظيم القاعدة المتشدّد، إلا إذا كانت تبيع خدماتها له، وحينها يكون دينها المال.

– كيف وصلت إليك هذه الأوراق في قبرص؟

– كنت في أفغانستان قبل سنوات!..

– ماذا كنت تفعلين هناك ومع من؟

– أنت لست جادّا.. لم تصدقني؟

– لا.. لم أكذبك..

– ولكنك لم تصدقني

– هو كذلك، الأمر لا يهمني.. مجرّد فوضى عابرة، سحابة صيف وإن دامت سنوات..

– هل يمكنك أن تتحدثي في موضوع آخر جادّ؟

– الموضوع جادّ، هذا موضوعنا.

– كيف تقبلك القاعدة وأنت بهذا اللباس وهذا التفتّح؟

– سأحكي لك اليوم كل شيء..

أبي مات مقتولا مع تنظيم القاعدة، وقبل أن يموت، كنت أعيش معه.. انتقلتُ معه إلى أفغانستان.. أبي تخلّى عن ثروته الطائلة، وتخلّى عن أمي أيضا من أجل الجهاد.

– هل رفضت أمك الجهاد معه؟

– لا، افترقا قبل أن يصبح جهاديا، بعد مدة من زواجهما، تفطّن إلى أن أمي غريبة التصرّفات، فراقبها ووجدها تتنقّل إلى معهد في إيطاليا بشكل دائم، كانت تدخل المحفل الماسوني

هناك، لقد اكتشف في وقت متأخّر أن زوجته يهودية، وحين افترقا أخذتني أمي معها، وأدخلتني المعهد الماسوني، عشتُ وتربّيتُ فيه.

– أليس أبوك يهوديا؟

– أبي عربي، هو أردني، وأمي يهودية.

– كيف سمحوا لك بدخول هذا المحفل وأنت عربية؟

– اليهود يعتبرون بالأم، فإذا كانت يهودية فلا يهم الأب.

– وماذا تفعلون في المحفل الماسوني؟

– ندرس ونمارس كل الأنشطة

– ماذا تدرسون؟

– ندرس كل شيء، فنحفظ القرآن ونتعلّم النحو والصرف والبلاغة، ونتخصّص فيما نكون فيه مبدعين، ولما كنت محبّة للإعلام الآلي، تخصّصتُ فيه.

– هل كنتم تدرسون ما له صلة بالعربية والإسلام من أجل أن تحاربوا العرب والمسلمين؟

– لا، نحن نحارب المسلمين فقط.. ستعرف أكثر عن العالم ومن يتحكّم فيه عندما أحضر لك كتاب "أحجار على رقعة الشطرنج".. اليهود يطوّقون العالم من كل جهة.

– طيّب، وأنا ماذا يمكنني أن أعتبرك.. يهودية أم عربية؟

– سؤال مهمّ، أنت ذكيّ..

– أنا هربتُ من المحفل الماسوني وتخلّيتُ عن أمي.. وهي الآن تزورني من أجل إكراهي على العودة إلى حياتي السابقة في خدمة مصالح اليهود، لعنة الله عليها، عليها من الله ما تستحقّ!.

– جيّد.. هل انتهى الفيلم الخيالي الطويل؟

– أعرف بأنك لا تصدقني.. سأشرح لك..

قبل أن أتوب إلى الله، طلب مني القائمون على المحفل أن أتصل بأبي في أفغانستان، بعد أن عرفوا بأنه التحق بتنظيم القاعدة، خاصة أن وجودي معه يدفع شكوك الجهاديين في نشاطي، وهناك اخترقتُ القاعدة ووصلتُ إلى كبار قادتها وتحصّلت على معلومات ووثائق هامة، لكنني عندما عدتُ بها إليهم ألزموني بالبقاء في المحفل وعدم مغادرته، وحين تحجّجتُ عليهم بكفاءتي في اختراق المواقع الإلكترونية واختراق الشخصيات والتنظيمات والحصول على المعلومات قالوا لي "لا تتوهّمي بأنك حصلت على شيء كبير، فما بحوزتك عن تنظيم القاعدة نعرفه ومتوفر لدينا من قبل، أوقفي عملك في هذه المهمّة حتى نعطيك أمرا آخر"، وهنا قرّرتُ الفرار من المحفل، فأوقعتُ نفسي في ورطة وأمي لازالت تطالبني بالعودة إليه.

– سلاف.. لا يوجد شيء منطقيّ في كلامك!..

– لا.. لا تتسرّع، أصبحتُ مقتنعة بضرورة الجهاد ومحاربة اليهود.

–اليهود ليسوا جميعا سواء.. أنت تقصدين الصهاينة!.. كيف نحاربهم برأيك؟

– علينا أن نصلح شأننا نحن المسلمون، علينا الاحتكام إلى شريعة الإسلام، وحينها نتمكّن من مجاهدة اليهود..

بالمناسبة.. الطواغيت عندكم في الجزائر كثيرون، يجب مجاهدتهم.

– اذهبي أنت وجاهدي فيهم.

– نعم سأذهب وأجاهد.. أريد أن أستشهد في سبيل الله

– هل يمكنني أن آخذ نفَسا وأستريح؟ أفلامك الخيالية تُشعرني بالنعاس

– يجب أن تجيبني.. هل تساعدني وتقف إلى جانبي؟

– أنت إمّا مريضة نفسيا، أو شرطية قبرصية، أو عميلة للمخابرات الأمريكية، أو مافيا..

– أعترف.. أنا ما قلتُ لك، وزيادة على ذلك أنا مريضة نفسيا أيضا.. الماضي الذي عشته دفعني إلى عيادة الطبيب وأنا أتماثل للشفاء.

– إذا كان ما تقولينه صحيحا فأنتم الغرب من صنع التطرّف والعنف عندنا

– هم ولستُ أنا، ولكن هذا صحيح، هم يوفّرون الحماية لحكّامكم في المحافل الدولية، ويضغطون عليهم لممارسة الاستبداد والظلم عن طريق مؤسسات الأموال العالمية التي

بأيديهم، ثم يحرّضونكم للثورة عليهم، وفي الأخير يتهمونكم بالإرهاب.. الغرب يستثمرون في تراثكم، فهم يدرسونه جيّدا، ثم يستخرجون منه ما يمكن استغلاله لصالحهم ضدّكم...

– فكرة الجهاد هذه لا أساس شرعيّ لها، المسلم لا يقتل أخاه المسلم، تحدّث العلماء عن الجهاد عندما كان قتالا ضدّ الاحتلال، أما بينهم فلا جهاد.. عبد الله عزام حمل لقب المجاهد وأوّل الأفغان العرب عندما حارب السوفيات في أفغانستان، لكن عندما صار القتال بين الطوائف المسلمة سقط وصف الجهاد عن أفعاله، يمكنك أن تفتحي موضوعا آخر.

سلاف.. صاحبة النفس الطويل والصبر العميق.. المرأة التي يلهث الطمع بلسانها، تقف أمام إجابة واضحة، أدركت لأوّل مرّة بأنها تواجه رجلا من نوع مختلف.. رجلا لا يمكن اقتياده إلى حيث تشاء، عرفت من نبرة صوته ونظرة عينيه بأنه خبير بالكمائن وضالع في المحن ويعرف كيف ومتى يهجم أو يتصدّى، وكيف ومتى يكتفي بالمراقبة والحذر.. تصوّرت بأنه يمكن أن يشنقها بحبل كلمة تنطق بها.. استوعبت بأنه لا يصدّقها ويحذر ممن يقف وراءها وليس منها هي.

قرأت سلاف في ملامح إبراهيم كل الرسائل، اقتنعت بأنه أشدّ خطورة منها وأنه يعي جيّدا موقف الرفض الذي اتخذه أمامها في غمرة الجدّ.. تشعر بأنه مستعدّ للدخول في مخطّط مهمّة استخباراتية طارئة ضدّها وتنفيذها ولو بتصفيتها لغير

طرفٍ آخر، تسمع صوتا غليظا يقول لها "أيّا تكوني؛ عميلة للموساد أو للأمريكان أو لجهة أخرى، أو عنصرا في القاعدة.. أيّا يكن فإن الأمر لا يشكّل خطرا بالنسبة لي.. تمتّعتُ كثيرا بالسباحة في الدماء، ولا بأس بالغطس مرة أخرى!".

يوقّع إبراهيم على دفاتر ذات الشعر الغجري بلون الدم.. يطلق رصاصة الرحمة على صداقة فاقدة للمعنى ويتخلّص من بروتوكولات دبلوماسية الخشب... أخيرا وصلا إلى مفترق الطرق، ووجها لوجه هما أمام لافتتين لاتجاهين متعاكسين، ولم يبق من شعرة معاوية بينهما غير خيط الضيافة الذي سيستمرّ في المراوحة بين الارتخاء والشدّ إلى أن ينقطع.

– سلاف.. الموت والقتل عند العملاء أمرٌ طبيعيّ.. الوطن أسبق وجودا منّا، والله أسبق منهما.. هل يمكننا أن نتحدث عن بقية صداقة أو فتات كلام ننثره بألسنتنا بعد الآن؟

– أكيد إبراهيم..

– متى نعود من استراحتنا؟

– آه، نعم.. تريد أن تخلو بنفسك الآن؟

– ربما هو كذلك..

– غدا لن أكون هنا، بعدها يمكن أن نلتقي، فكّر جيّدا في الموضوع.. أريدك دائما إلى جانبي لتساعدني.

لا تملّ هذه الفتاة من شيء، تتمسّك بالأمل حتى آخر لحظة، وتصرّ على الوصول لغايتها ولو بتكرار المحاولات آلاف

المرّات.. منطق الخبرة يقول بأنها مدرّبة تدريبا جيّدا.. ذلك التدريب الذي يقوم على رفض فكرة المستحيل.. فكل شيء ممكن مادام الحرص والإصرار قائمين.. حرصٌ وإصرارٌ يبقي إبراهيم على قدر مسافة قرب سلاف منهما، ويتمسّك بخيط أمله.. نادل المطعم، هو مفتاح الخروج من هذه المغامرة بأقلّ الخسائر! النادل.. هو من سيوقظ مارد الفانوس أو يسحب بساط علاء الدين.

****

– إبراهيم.. يا أهلا بك.. استعجلتُ الخروج من العمل اليوم لأني كنت متأكدا من مجيئك، أنت تحترم المواعيد..

– كيف لي أن أفوّت فرصة اللّقاء بك يا نوزاد؟.. هذه واقعة تشبه ظاهرة الخسوف والكسوف، لا تحدث إلا مرّات نادرة، فلا تتعجّب أن نترقّب نوادر الشمس والقمر..

– هل أنت شاعر؟

– لا.. لِمَ تفكّر نحوي بهذه الصورة؟

– أسلوبك يخترق القلوب.. تبدو متعوّدا على الغزل؟

– أيّ غزل يا حبيبي؟ في الوطن العربي تقضي عمرك وأنت تجري وراء لقمة العيش، وحين تعقد قرانك، لا تخرج فكرته عن لقمة العيش هذه.. الغزل مضيعة للوقت، أو إن شئت قل إن الوقت لا يسمح باللّطف والمرح..

– تبدو حزينا!

– بل أنا هو الحزن.. إذا لم تره في شكل واضح فانظر إليه في وجهي..

يضحك نوزاد..

– هل مثّلت على خشبة المسرح أو في التلفزيون من قبل؟

– الوطن العربي أكبر مسرح مفتوح على الهواء الطلق.. شعوبنا تؤدي أدوار العبودية بالفطرة، السيّد الأمريكي انتقل من الزنوج إلى العلوج.. كان يستعبد السُّود الذين يأتي بهم من إفريقيا إلى وطنه، واليوم أصبح يمارس الاستعباد بالوسائل التكنولوجية، هو يستعبدنا بالفلس الذي نحصل عليه من العمل في أوطاننا، بينما يبني أهرامات الدولارات بعرقنا وثرواتنا، يستخرج بترولنا ثم يبيع لنا مشتقاته، بل يبيع لنا البترول الذي استخرجه في أوطاننا!..

– تستطيع أن تقول إننا عدم في هذا الوجود..! لماذا كل هذه الإطالة؟ لكن أنتم عرب إفريقيا من أنصار الروس وليس أمريكا، روسيا تعاملكم بمنطق الحليف وليس بمنطق المستعمر...

– عندما تطلب لي قهوة وكأس ماء، سأغدق عليك بأنهار من الإجابات وجبال من الأسئلة أيضا..

يضحك نوزاد..

– الحديث معك شائق، أنت مرحٌ ولست حزينا، لكنك خبير بفن الحديث.. لماذا لا تمارس مهنة الصحافة، ثقافتك وأسلوبك يسمحان لك بذلك..

– يظهر بأنك صحافي، أو مهتم بتتبّع أخبار الصحافة

– لست صحافيا، لكنني كاتب ومحلّل سياسيّ، أساهم بنشر مقالات صحافية وتحاليل سياسية كلما كان لديّ الوقت

– يعني تكتب بلا مقابل؟

– أحيانا أتلقى تعويضا وإجازة عن كتاباتي، وأحيانا لا يحدث..

– لماذا لا تعمل صحافيا بشكل دائم، ربما هي مهنة أكثر استقرارا من العمل في مطعم؟

– هنا في قبرص لا يمكن ذلك، وأنا غير مستقرّ.. بالمناسبة، اليوم انتهى اتفاق العمل في المطعم.. أفكّر في الاستمرار بالتوجّه شمالا..

– منذ متى وصلت إلى قبرص؟

– قبل أشهر قليلة كنت في سوريا، هو وطني.. لكنني غادرته بسبب مطاردة الشرطة لي هناك.

– لماذا تطاردك الشرطة؟

– نشرتُ مقالا سياسيا في صحيفة الحياة اللندنية فلاحقني الأمن.. نحن الأكراد نعيش بلا حقوق، حتى أننا لا نملك وثائق هوية.. ولم تشفع لي مواقفي الداعمة للعراق قبل الاحتلال الأمريكي وبعده، لم تشفع لي مواقفي ضدّ المدّ الشيعي ومساندتي للقومية العربية في الإفلات من المتابعة.

فررتُ من سوريا باتجاه اليونان أوّل الأمر، وبقيت هناك ثلاثة أشهر، أشبعتنا الشرطة ضربا بالهراوات، وكنا لا نجد ما نأكله.. كنا نعاني من قمع شديد، وعندما اقترب موعد زيارة بعثة الأمم المتحدة للاجئين، قامت السلطات بجمعنا في مخيّم مسيّج ومحاصر بالجيش وتم تسجيل أسمائنا في قوائم، تسلّمها ممثلو الأمم المتحدة للاجئين لتقديم مساعدات مالية لحكومة اليونان، ومباشرة بعد مغادرتهم عاد أسلوب القمع والعنف باستعمال الهراوات، وتم طردنا إلى الحدود حتى نخرج من التراب اليوناني، فكانت تركيا أقرب الحلول بالنسبة لي، وفيها وجدنا المعاملة الحسنة، لكنني غادرتها بعد شهر فقط بسبب انعدام فرص العمل، فجئت إلى قبرص لأنها وجهة سياحية وتتوفّر على مرافق لهذه الخدمات، تمكّنني من الظفر بوظيفة ولو غير دائمة.

بدوتُ كمستجير من الرمضاء بالنار وأنا أعيش لحظات المعاناة مع نوزاد.. كنت أرى نفسي مستظلا بالشمس من حرّها عندما أتأمّل حركات جسمه وعضلات وجهه وهي تتقلّص وتتمدّد، بينما كانت رغبتي أن أطلّ على نافذة أمل أو مخرج.. كلمات نوزاد القليلة تختزل هذا العالم المتوحّش.. تلك العواصم التي تنادي بحقوق الإنسان وحقوق الأقليات والعدالة والمساواة هي أوّل من ينتهك هذه الحقوق ويخرق هذه المطالب، وهي العواصم نفسها التي تحمل أسطولها إلى عرض البحر وتأمر سرب طائراتها الحربية بالتحليق لضرب بلادك بسبب شرطيّ

قمع مواطنا قام بقطع الطريق العام احتجاجا على انقطاع التيار الكهربائي.. يبقى عزائي في تقاسم المحنة معه أكثر ما يواسيني، لكن عليّ أن أبسط له بعض مِحَني.

ينتبه نوزاد إلى تعجّبي، يرغب في سماع الحديث الذي يجري داخلي.. أرفض أن يشعر بكونه يعيش استثناء، فأبادره بالحديث..

– أنا أنتمي إلى جيل فاشل.. يقولون في بلادي "النار تترك الرماد".. نحن جيل الرماد، نحن جيل وُجد ليدفع ضريبة أخطاء من كان قبله، ثم يتسبّب في نكسة الجيل الذي سيأتي بعده.

النجاح الوحيد في وطني هو نجاح جيل الثورة، حارب الاستعمار الفرنسي وأخرجه راغم الأنف، وبعد هذا الإنجاز، ماتت كل محاولات الإبداع.. بعد الاستقلال عاش الجيل الأوّل من الشباب عصره الذهبي، فكانت جذوة الروح الوطنية ملتهبة، وقادة البلاد يرسون المشاريع الاقتصادية ويخطّطون لمجتمع المستقبل.. كان شباب سنوات السبعينيات يختار العمل الذي يعجبه، فيتنقل بين عملين أو ثلاثة في اليوم الواحد ويُفاضل بينها ليحدّد أيها يستقرّ فيه، في ذلك الزمن، كان المهاجرون الذين غادروا نحو فرنسا للعمل، يعودون إلى الوطن لينخرطوا في الشركات والمؤسسات التي تم إنشاؤها، وكانت شعارات الثورة الاشتراكية تغطي الآفاق، رغم أن معظم الشعب لم يكن متكوّنا علميا ولا يعرف أبعاد الاشتراكية.

وجاء جيل الثمانينيات، حيث بدأت الآفاق تضيق، إلى أن وصلت الأزمة إلى عنق الزجاجة، وضاعت مكاسب زمن الاشتراكية تحت طموح حياة الرفاهية التي أفلت شمسها بسبب سقوط أسعار النفط، فاضطر المسؤولون إلى سدّ هذه الفجوة بحكاية الديمقراطية، وعرفت البلاد تأسيس أكثر من ستين حزبا سياسيا، أحيت الخلافات أكثر من بعثها للسياسات، وطرحت المشكلات أكثر من اقتراحها للحلول، وبينما كان الشعب يبحث عن لقمة العيش ويسعى إلى تحقيق العدالة، كان قادة الأحزاب يسعون إلى الوصول للمناصب وتحقيق المكاسب.. كان السياسيون في بلادي يغرّدون خارج السرب..

خرج جيلنا إلى الوجود من حمإ الأزمة، فلا هو أخذ نصيبه من مشاريع زمن الاشتراكية، ولا هو تنفّس نسيم الديمقراطية، وعندما تأهّب لأخذ موقعه في المجتمع، اكتشف بأن الأوان قد فاته.. واستيقظ على أخبار قوارب الموت للمهاجرين السريين المتوجّهين نحو أوروبا وهي تملأ الآفاق، فغامر بركوبها بحثا عن بصيص أمل في أيّ زاوية من العالم يمكن أن تحتويه..

ماذا أقول لك يا نوزاد!.. لقد ابتلعت المياه أحلاما كثيرة، وأنهت حكايات حبّ عفيفة قاومت من أجل البقاء حتى آخر قطرة ماء مالحة شربتها.. تقطّعت قلوبٌ.. ثكّلت أمّهات.. شابت أذرع ناعمة، وقِلّة ممن نجحوا بعد الوصول إلى الضفة الأخرى وقّعوا بِكيّة على جباههم.. فلم نعد نلتق بهم إلا في

المناسبات الكروية عبر فيديوهات نتقاسمها معهم في الفيسبوك، ورغم ذلك مازالوا يتوشّحون بالأعلام ويعانقون النجمة والهلال وتتلوّن أجسادهم المجعّدة بالأبيض والأزرق.. كبُرت فينا وفيهم المحن، وبقي هذا الوطن صغيرا في أيدي الذين يعبثون به..

– أنت أكبر مني يا إبراهيم، فبينما أحمل همّي، تحمل أنت همّ وطن..

– لا.. أنا لا أزعم أني ضمير المجتمع، ولكني مقتنع بأن فشلي من فشل الجميع، تماما مثل قصّة الحجر الصغير

– تذكّرني بإيليا أبو ماضي، إذن لا تحتقر نفسك.. عليك أن تؤمن بمبدأ النضال.. لا تكن مثل الحجر الصغير الذي تخلّى عن دوره في المحافظة على بناء السدّ.. أنت تعرف بأن جدار السدّ انهار فأغرق القرية بأكملها بسبب مغادرة الحجر لمكانه..

– فرنسا اللّعينة التي صنعت جزائريّي كاليدونيا، مازالت تعبث في الوطن من أجل مصالحها، لكن لن تكون هنالك كاليدونيا أخرى.. سيُنهي الشرفاء مهما قلّ عددهم هذه المحنة وسنعود يوما ما.. يستحيل أن لا يبقى أوفياء لقوافل الشهداء.. مازالت عروق رفقاء السلاح تنبض بالدم، وجيل الاستقلال محافظ على وفائه لنضال أجداده.

– لكننا سنبقى في مشكلة مع الديمقراطية.. الوطن العربي لم يستطع أن يكون ديمقراطيا..

– الديمقراطية هي أكذوبة الغرب التي قصمت ظهرنا، نحن صدّقنا بوجود الجمهورية الفاضلة.. الشعوب العربية لم تُحسن التعبير عن طموحاتها، هي فقط أخطأت الوصف.. الشعوب تبحث عن العدالة، وفي العدالة يتبدّد القمع والاستبداد، أما مطلب المناصب فهو لفئة قليلة.. علّمتنا التجارب أن السياسي ينتهج منطق المساومة في أيّ موقع يكون، فهو يساوم الرئيس عندما يكون في المعارضة، ويساوم المعارضة عندما يكون رئيسا، بالمحصّلة، صراع الديمقراطية صراع مناصب وليس صراع شعوب.. الناس يرغبون في نيل حقوقهم الممكنة وضمان كرامتهم.. مطلب سهل، وإذا أردت أن تعتبره هو الديمقراطية فلك ذلك.

– يعجبني تفكيرك.. لماذا لا نتفق ونختار وجهة مشتركة.. قبرص قدّمت لنا ما في يديها؟

– أبادلك الرأي، وأفضّل أن يكون ذلك في أقرب وقت ممكن، لكن إلى أين نذهب؟.. اجعل البحث عن عمل ولو عابرٍ جزءا من مشروع الخطة.

– ما رأيك بألبانيا؟ لكن لابدّ لنا من المرور عبر اليونان أوّلا، لديّ صديق سيمكّننا من دخول حاوية في باخرة تحمل السلع مساء غد، نختبئ داخل الحاوية، وبعد الوصول إلى اليونان نستقلّ البرّ بعيدا عن الأعين، لذلك سنلبس ثيابا مشهورة بين اليونانيين حتى لا نلفت انتباه الناس، وبعدها نجتاز الحدود إلى

ألبانيا في توقيت منتصف الليل.. في هذا التوقيت تعوّض الشرطة الجمارك مدّة ربع ساعة إلى حين وصول فرقة الجمارك الثانية المناوبة.. وجود الشرطة يكون شكليا، فهم لا يراقبون الوثائق لأنه ليس من مهامهم، لكن يجب أن تتم العملية في غضون ربع ساعة بالضبط، قبل وصول الفرقة الثانية للجمارك.. طبعا لا توجد أيّ ضمانات، ما نقوم به هو مغامرة لأننا لا نستطيع الحصول على وثائق العبور لا من سفارة اليونان ولا من سفارة ألبانيا.

– الوضع الإقتصادي في ألبانيا ليس حسنا.. لماذا لا نتوجّه إلى بلد آخر أحسن حالا منه؟

– هذه المنطقة قريبة إلينا من الناحية الاجتماعية، فأهلها بسطاء الحال مثلنا، ومجتمعاتها غير عدائية، كما تضم تجمعات مسلمة ستحترمنا وتجنّبنا العيش في نفسية المطلوبين أو الغرباء، وحين نصل إليها سيكون التنقل إلى البلدان المجاورة سهلا، خصوصا وأننا دون وثائق، سنكون على بوابة مقدونيا، صربيا، البوسنة، والهرسك.. وقريبا منها رومانيا وأوكرانيا وبلغاريا والمجر.

حكاية قرب بعض أوروبا منّا حرّكت ذاكرتي، أتساءل.. ماذا بقي من نظرية الإبادة التي عطّل تنفيذَها بعض عقلاء الغرب؟.

قبل سنوات كان صديقي القبائلي الذي تقاسمتُ معه غرفة الإقامة الجامعية يردّد على مسامعي هذه الفكرة "مفكّرو الغرب وفلاسفتها يتدارسون نظرية الإبادة، بعض من تسرّع فيهم قال

إن شعوب إفريقيا وكثير من شعوب آسيا وشعوب أمريكا اللاتينية التي تسكن الأمازون والأدغال حجر عثرة في طريق تقدم الإنسانية ولابدّ من التخلّص منها عبر حملات إبادة.. هذه الشعوب عطّلت الكون بأكمله، وبقاؤها على وجه الأرض قد يزيد من مضاعفة أتعاب الدول المتقدّمة.. نحن محظوظون لأن بين مفكّري الغرب عقلاء دعوا زملاءهم إلى التريّث... قالوا لهم لنمنح هذه الشعوب فرصة أخرى، لعلّهم يلحقون بالركب أو يقدّمون دليلا يثبت قابليّتهم للتقدّم والخروج من الأكواخ...

تسقط هذه الفكرة في رأسي، ثم تتدلّى بين عينيّ مثل ذيل قردٍ إفريقي يرقص وهو في أدنى أغصان شجرة تسلّقها.. ترتسم في مخيّلتي صورة طائر الببغاء اللاتيني وهو يحلّق في غابة الأمازون، أتذكّر مجازر الفلبين وكمبوديا.. تستوقفني ناطحات سحاب ماليزيا وهي تثقب طبقة الأوزون.. تكبر علامة استفهام بحجم رأسي بين عينيّ وتمحو صورة ذيل القرد، ثم يعود إليّ عقلي وأتساءل.. هل يوجد فعلا تقارب اجتماعي بيننا وبين شعوب أوروبا الشرقية غير تقارب الفقر؟ هل كانت تصفية الأقليات المسلمة في صربيا ضمن نظرية الإبادة؟ هل تكون الإبادة في الأماكن الجغرافية المتخلّفة أم تُباد أجناس بشرية بعينها؟ أم دعوة الإبادة فكرة لمحاربة الانتماءات والمعتقدات؟.

تستصغر هذه الفكرة عقلي، فأجدني أتخيّل نفسي أتسلّق خريطة العالم.. أتخيّلني مواطنا إفريقيا، قدَمايَ أسفل الحدود مع

النيجر ومالي، ويداي تمسكان بخيط ساحل البحر، بينما يتطلّع رأسي نحو أوروبا، إلى أن أنجح في رفع رجليّ ومدّ يديّ، حتى أصل إلى حيث أنا في قبرص... ابتسمتُ.. ضحك نوزاد وهو يسألني..

– ما خطبك إبراهيم؟

أصف له المشهد، فيغوص معي في ضحك هستيريّ وهو يحرّك رجليه ويشدّ قبضتي يديه محاكيا وضعية التسلّق، ثم يضيف "وضعية تسلّقك من الجنوب نحو الشمال سهلة على الخريطة لو قصدنا أوروبا الغربية.. وضعيّتي الجانبية من الشرق نحو الغرب هي الصعبة..".

نفترق على موعد التوجّه نحو تيرانا، سأخالف تقاليد معظم مسافري بلادي وأصافح عاصمة غربية تحمل وجها شرقيا.. عاصمة ألبانيا أكثر عطرا من باريس التي نتنت برائحة الجثث وتتزاحم على دخولها قلوب ميتة فقدت حاسّة الشمّ، وانتقلت حاسّة الذوق عندها من اللسان إلى البطن.. رحلة مخزية من شرف الإنسان إلى شهوته.. بعض الهمم تنكص على أعقابها في وقت متقدّم.. لم يخطئ الفنانون حين عزفوا عن نحت تماثيل لقادتهم وهم أحياء.. العبرة دائما بالخواتيم.

تخرج سلاف من عقلي وأفلتُ من قبضتها.. صرخة مدوية أرفعها في وجهها وأنا أقرّر التوجه نحو ألبانيا.. لا ينتابني شكّ بأني سألتقي بها مرّة أخرى.. هذه الفتاة ستبحث عنّي، لكن أنا

من سيطلبها.. لابدّ أن أوقّع رحيلها بيدي.. لابدّ أن تدفع ثمن تلاعبها.. أصبح الأمر أكيدا.. هي ليست بريئة.. لكن دمها يجب أن يجري بين أصابعي، سأخلّل به أناملها.. لم أعد أرى فيها سوى قائد الفتنة والفرقة في الأوطان.. ترى هل نالت حظّها من الجزائر؟

على الأرجح أنها هي التي ستنال حظّها من الجزائر على يديّ..

****

نرحل أنا ونوزاد، نحمل آمالنا وآلامنا على أكتافنا.. الظهر يحمل الأعباء..

يوشك نوزاد أن يعانقني.. يقول والفرح يملأ عينيه..

– أنت يرافقك دعاء الوالدين.. قضيتُ حياتي في السفر والمغامرات ولم أجد أيسر من هذه المغامرة، لو أننا سافرنا بالوثائق الرسمية لكان أشقّ علينا من هذه السفرية ونحن نتهرّب من الشرطة ونتجنّب حرس الحدود..

يستقبل ألبانيا في قلبه وهو يقول..

– هذه هي ألبانيا.. هل تعلم بأنك يمكن أن تشاهد الزيّ العثماني هنا، تماما مثلما لو أنك في سوريا أو الجزائر؟

– لا تنس أننا قضينا ليلة دون نوم يا نوزاد!.. لن أتنازل عن غفوة ستّ ساعات على فراش مريح.. لا يمكنني مواصلة السفر وأنا متعب..

– لا تتحدث عن شيء.. كل صعبٍ صار سهلا الآن.. عندما نصل إلى أوّل قرية سننادي سائق الشاحنة ليتوقّف وننزل، سنتوجّه إلى مسجد القرية، نصلّي الظهر مع الناس ثم ننام داخل المسجد.. نحن في مأمن الآن.. دخلنا ألبانيا في جهة الشمال من حدودها مع اليونان، وهذا يعني بأن العاصمة تيرانا ليست بعيدة عنا.. أعرف صديقا من مقدونيا يقيم فيها منذ سنوات، كنت قد التقيتُ به في تركيا حين زرتها منذ فترة بعيدة وساعدته حينها، ستعرف شابا طيّبا بعد أيام، في آخر اتصال بيننا أخبرني بأن ظروفه جيّدة، كان يقول لي بأن فرص العمل للأجانب هنا متاحة رغم بساطة الحياة.

– ما هي نوع الأعمال التي تتوفّر هنا؟

– الناس هنا يحتاجون من يخدمهم في بناء المساكن وطلائها وفي المتاجر والمطاعم.. توجد فرص كثيرة رغم بساطتها.. لكن لا تذهب بتفكيرك بعيدا، إياك أن تقارن الأمر بأوروبا الغربية!.

– هل يحتاجون هنا إلى مدرّسين للعربية في الجمعيات أو المساجد؟

– انتبهتَ إلى فكرة جيّدة.. الألبان ليسوا عربا، رغم أنهم مسلمون، سوف نستغلّ معرفتنا بالعربية للعمل.

يرفع نوزاد صوته مع صوت المؤذن في القرية، يضغط السائق على الفرامل وتتوقف الشاحنة.. نتبادل الشكر والتحية باليد،

تبوح القلوب لبعضها بما عجز عنه اللسان.. تحية السلام والأمان تمتدّ إلى داخل المسجد..

– السلام عليكم..

ينتبه الناس داخل المسجد إلى طريقة نطقنا للسلام.. يفهمون أننا عرب، يظهر لنا الإمام فوق المنبر وهو يخطب، فيشير إلينا أحدهم إلى موضع الوضوء.. وعندما نعود، نجد بأن المحراب قد تمّ حجزه لنا وتنازل عنه الإمام..

– أهلا بكم، نفضّل أن يصلّيَ بنا عربيّ، فالنبيّ عربيّ، والقرآن بلغة العرب..

يتردّد لساني في قول شيء لا يشبه السّلام الذي ألقيته.. أفكّر في أن أقول لهم أنا أمازيغيّ أو قبائلي أو تارقي أو شاويّ، وأضمّ عقل نوزاد إلى عقلي لأنُوبه في القول.. وكرديّ.. مجموعات تعريف كثيرة لن يفهموا وقوفنا أمامهم بها.. ولم أوقف نفسي عليها يوما ولم أشعر بحتمية لسكب وجودي في إنائها، تحضرني انتماءات نسيتها فجأة ثم عادت.. أقتل الفجأة وأعبر بنوزاد إلى الصف الأول..

تنتهي ركعتا الجمعة وتبدأ حلقة السؤال عنا وعن أحوالنا وسفرنا.. أشعر بالبطولة وضخامة المغامرة، أرغب في أن أشبه نفسي أمامهم بابن بطوطة.. تتوقف رغباتي جميعا عند نقطة حاسمة؛ لن أمثل إلا الجزائريّ.. جزائري بن باديس والطيّب

العقبي والبشير الإبراهيمي وزيغود يوسف والعقيد لطفي.. أشعر بالشموخ، يرتفع جبلي وينطق لساني..

– أنا إبراهيم، قدمتُ من الجزائر.. أحسب أني لم أخطئ الضيافة، وهذا نوزاد من سوريا الشامخة، جمعت بيننا الأقدار ولا أقول الصُّدَف، هي الأقدار نفسها التي أوصلتنا إليكم، في الحقيقة نحن اخترنا قدرنا بمشيئة الله، قصدنا هذه البلاد ولم نقصد أخرى قد تكون أفضل لعابريْ سبيلٍ.

– نحن نرغب في أن نجتمع بكم عقب كل صلاة، لستم غرباء، غير بعيد عن هذه القرية ستجدون الكثير من العرب.. السوريين والعراقيين وغيرهم.. كثير منهم أصبح ألبانيا وتخيّر أفضل الأخوال لأولاده.

أحسن خطيب المسجد تمثيل القرية، قال عنها ما كنا ننتظره..

– لدينا منزل ضيوف دائم بنيناه مع المسجد، نأسف أنه لا توجد فنادق في القرية، لكن المنزل نظيف ومتّسع، سنسلّم لكما المفاتيح بعد العصر إذا قبلتما المبيت.

– هذا ما نحتاج إليه، هو فضل لن ننساه..

تغمرنا القرية بفضلها، وتتوافد إلينا الناس جماعات في المنزل، مشهد قريب من ثقافتنا.. مظاهر التكافل ومدّ يد المساعدة ظاهرة في هذه القرية، لكن جميع الذين قدموا لرؤيتنا يهتمون

بنوزاد أكثر مني.. التقطت أذناي في زحمة الكلام أخبارا غريبة.. الجميع يسأل نوزاد ماذا يحدث في سوريا؟

لم يكن لائقا ولا مناسبا أن أطلب شرحا.. تظاهرتُ بأن الأمر عاديّ وأننا على علم بكل كبيرة وصغيرة حول ما يجري في أوطاننا، لكن شدّة النقاش دفعت نوزاد إلى مناداتي وهو في زاوية بعيدة عني..

– إبراهيم.. هل سمعت؟ حدثت أمور كثيرة خلال رحلة سفرنا ونحن لا نعرف!..

– ماذا حدث وأين؟

– الجميع يتحدّث عن فوضى في سوريا.. يقولون ربما هي بداية الحرب!

– بين من ومن هذه الحرب؟

– يقولون إن المظاهرات تملأ الشوارع وقد نادت جماعات بالجهاد!

كان هذا الموقف هو الصورة المعبّرة عن فكرة الرجل غير المناسب في المكان المناسب بالنسبة لي.. نعم، الخبر غير المناسب في المكان المناسب.. بدأت أقرأ وجودي في هذه القرية من زاوية مظلمة، فقد يقولون إننا هاربون من الحرب، رغم أني لستُ سوريا ولم أدخل سوريا..

فجأة أسترجع ذاكرتي.. لقد ذهبتُ إلى سوريا، والتقيتُ هناك بسلاف... تبّا، كان حديثها عن الجهاد آخر ما افترقنا عليه!.. هل كان لوجودها هناك علاقة بما يُقال بأنه بدأ يحدث؟

نوزاد نفسه لا يعرف شيئا عن الموضوع، ولابدّ أن لا يعرف أيّ شيء.

بدأت مظاهر التعب في وجوهنا تعبّر عن نفسها لسكان القرية، وفي الواقع كانت بالنسبة لي مظاهر قلق واضطراب.. لغزٌ كبير بين يديّ لم أتمكّن من حلّه.. غمرتني تساؤلات كثيرة.. هل لسلاف علاقة بما يحدث في سوريا؟ هل ذهبت إليها في مهمّة سرية واستخدمتني دون أن أتفطّن؟

يغادر السكان منزل الضيافة وأتوجه إلى نوزاد..

– لابدّ أن نخرج من هذه القرية في أقرب وقت ممكن، يجب أن تتصل بصديقك المقدوني..

– هل أفزعك خبر الاضطرابات في سوريا؟

– لا أريد أن يحسبني أحد فارّا من الحرب، الجميع كان يشير إلى ذلك.

شعرتُ بأني تسرّعتُ في ردّة فعلي وتذكّرتُ بأن سوريا هي وطن نوزاد، وللحظة بدا لي أن نوزاد أخذ يتلاشى ويتبخّر تحت وطأة خبر الحرب.. قضينا ليلتنا صامتين، يتأمّل هو سقف الغرفة، وأراجع أنا كلامي معه.. أحسستُ بأن جرح الوطن غائر، استأذنته في أن أدثّر عينيه بالظلام.. أطفأتُ الضوء

فاختفى كاملا أمامي إلا من أثر التنهّد، ورمقته قبل الفجر عند النافذة واقفا يتأمّل، فعدتُ أدراجي هربا إلى الغفلة وستر الظلام.

في الصباح ضرب نوزاد على طرف سريري "أبشر يا إبراهيم، محمد في تيرانا.. يقول بأنه يعرف القرية وسيأتي غدا ويصطحبنا، هو يقضي أيامه الأخيرة في ألبانيا، يقول بأنه سيعود إلى وطنه مقدونيا ويستقرّ فيه".

تلسعني هذه الكلمات "يعود إلى وطنه ويستقرّ فيه"، بينما غادرتُ وطني وأزعم أني لن أعود إليه، ما أضيق العالم حين تكون بعيدا عن وطنك!..

تذكّرتُ في هذه اللحظة يوما كنت فيه في قريتي، حين بدأ الناس يتحدثون عن شيخ مات في بلاد الغربة، حينها لم يكن أحد من الكبار ولا من الصغار يعرفه أو يسمع عنه شيئا.. وقتها قيل لنا إنه مات منذ أسبوع ويجري تجهيز وثائق نقل جثمانه إلى الوطن، وكان الناس يتساءلون.. ابن من أو شقيق من هذا الميت؟ واكتفى أبناء عمومته بالقول أن لا أحد يعرفه وأنه ذهب إلى فرنسا وهو شاب في السابعة عشر من عمره ولم يعد منذ ذلك الوقت، لكنه أوصى أصدقاءه بدفنه في مسقط رأسه..

للغربة الروح والجسد، وللوطن الجثث.

مسقط الرأس.. هذا هو الوطن بالنسبة لشيخ قضى عمره بعيدا عنه..

تطوف حول العالم بأكمله، لكن لا أرض تصبح لك وطنا، قد تمنحك أي دولة في العالم المال والحرية وتنجدك من الفقر وربما الموت، لكنها لن تكون لك وطنا.

يصل محمد صباح اليوم الموالي، ننتقل معه نحو تيرانا، تحمله الأشواق إلى الوطن.. يغرّد كثيرا عن مقدونيا، يدعونا إلى زيارتها ويزعم أنها أطيب مقاما وطعاما وأمانا.. يسبّح بحمد أماكن لا يسمع بها أحد غيره، يعتبرها مركز الكون، ويزعم أن أوّل إنسان على وجه الأرض نصب أثافيه في ترابها، فيعتذر نوزاد ويكتفي بشكره لحجز مكان عمله له، بينما تقودني أفكار محمد لدخول مقدونيا، فقد تحدّث عن سهولة السفر نحو أوكرانيا عبر بلغاريا.. هذه المرّة لن تكون مقدونيا إلا نقطة عبور، كان لابدّ لي أن أصل إليها.. أوكرانيا مُنتهى غايتي، هي قبل البوسنة أو الهرسك.. قد أتنازل عنهما لكييف، مهمتي ستنتهي هناك في عاصمتها أو في مدينة أخرى قريبة منها.

محمد، الشاب المتديّن فتح لي الباب على مصراعيه في اتجاه أوكرانيا، اقترح عليّ مرافقته إلى مقدونيا ووعدني بتدبّر مسألة دخولها دون وثائق، ومن مقدونيا، سيتوسّط لي عند ابن عمّه، رجل الأعمال الذي يملك استثمارات في أوكرانيا وله إقامة دائمة بها، يقول إنه معروفٌ بفضائله في مساعدة الشباب الراغبين في

السفر إليها، حيث يستخرج لهم وثائق الإقامة باسم فندقه أو باسمه الشخصي، وأحيانا يصبّ لأقاربه ائتمان المال في البنك لسحب الوثيقة التي تثبت القدرة على تحمّل نفقات السفر والإقامة.. يعدني محمد بأن عليا سيمدّ لي يد العون للوصول إلى غاية العاصمة كييف.. أشعر بالرعاية الإلهية تحيط بي من كلّ جانب، ويعجز لساني عن إيجاد كلمة معبّرة أردّ بها على فضل نوزاد..

لم أكن أرغب أن أصمت ونحن في مفترق الطرق.. بعد لحظات سوف يسلك كل واحد منا طريقه، ولا أحد يدري هل سيحصل اللقاء مرة أخرى أم لا؟.

موقف الافتراق صعب، ومن عاش الصداقة ليس كمن سمع عنها.. في هذه اللحظة بالذات أدركتُ أهمية السفر في اختبار الصديق، وجال في خاطري بيت شعر، أحببتُ أن أستقرّ به في قلب نوزاد، كأعظم ما أستطيع أن أمنحه لعزيز وأنا لا أملك شيئا.. أتأنّق في تلاوة مرثية تلبس ثوب الحداد..

ما أكثر الأصدقاء حين تعدّهم *** ولكنهم في النائبات قليل

يذرف نوزاد الدموع على أبواب بيت لا نملكه وسكنّا عنه بدلاً بيت شعر.. ينغّم أزيز صدره قافيته.. يهزّني رويّه، تتهاطل وديان من عينيّ الجافّتين، نتبادل عناقا طويلا، ويتوجّه هو نحو

عمله في اليوم الأوّل، بينما أنتظر الليل مع محمد لعبور الحدود نحو مقدونيا.

يرافقني طيف نوزاد ويجلس إلى جانبي.. يقود السيارة مع محمد، ثم يتوارى محمد خلف المقود وينغمس في التثبّت من الطريق بين مسالك ضيّقة، بينما يخترق طيف نوزاد رأسي ويتسلّل داخل مخّي، ثم يلتقي بي في فصّ على جهة اليمين، فآخذ بيده ونجلس على حافّة سيالات تنقل الأحلام، كأنها أنهار تجري في جنة الفردوس.. تمرّ الأحلام في مواكب مثل مواكب العرائس، ويشير نوزاد بأصبعه.. "أترى الأحلام أمامك؟ هذا هو نهرها تجري فيه.. شيئا فشيئا تنطفئ بعض الأنوار وتتحوّل إلى سواد، بينما تبقى قناديل أخرى مضيئة.. تلك التي تبقى مضيئة هي الأحلام التي تسير منسجمة مع مجرى التيار وتأخذ طريقها بكل سهولة، وهي التي تتحوّل إلى إنجازات سعيدة في حياتنا، أما تلك التي تتحوّل إلى سوادٍ وتندثر أمام أنظارنا، فهي التي تتصادم مع اتجاه التيار فتنطفئ شُعلتها بعد أن تتحطّم، لكنها هي التي تترك أثر النور في وجوهنا.. هي دليلٌ على أننا ناضلنا في حياتنا، قاومنا، هي دليل على الفشل، لكنها علامة للشّرف.. هي تاج على رؤوسنا، لكننا نستحي أن يراه الناس، فنخفيه بارتداء القبّعات واستعمال الأصباغ.. إنها الوقار الذي نقذفه بنقِيصة الشيب!.

الحياة كرٌّ وفرٌّ، ومبدأ النضال والمقاومة يتطلّب أن لا نُحرق كل سفننا يا إبراهيم.. لابدّ أن نُبقي على بعضها لحروبنا، نحن نواصل مشوارنا بالسفن التي لم تحترق.. ندير بها بقية المعارك، بينما نبني سفنا أخرى نحتاط بها لبقائنا!.. السقوط هو الذي يدفعنا لأخذ نفس بعقد الهُدنة، وإذا اقتضى الأمر، مسايرة التيار، ليس استسلاما ولا نفاقا، ولكن حتى نحافظ على أحلامنا التي نجت من الاغتيال، لنواصل بها المقاومة بعد أن نتعافى من جراحنا.

نحن نخفي شفرة وجودنا في أحلامنا التي سارت مع التيار، ثم نعيد بعثها واستولادها من رحمها لنبعث أحلامنا المغتالة.. نحن نخبّئ الشفرة لتنبت في جيل جديد، قد لا نعيش زمنه، لكن أحلامنا تعيشه.. بهذه الطريقة فقط لا نموت".

يغادر طيف نوزاد مثل ملاك أوحى إليّ بكتاب فيه رُقيةٌ لي.. يتوارى تاركا المشهد واضحا، حيث تشدّ يدا محمد مقود السيارة وتستعجل قدماه الوصول إلى مقدونيا بالضغط على المدوسة بينما أغوص في نوم عميق أستعدّ به ليوم جديد.

– إبراهيم.. هل أخذت حقك من النوم؟

– آه... نعم، هل وصلنا؟

– هل نمتَ جيّدا؟ الوضعية غير مريحة والسيارة قديمة...

– لا بأس.. في مثل حالة تعبي قد تنام وأنت في الماء..

– دقائق ونصل، اتصلتُ بالأهل في المنزل وأخبرتهم أن معي ضيفا متعبا، ستجد كل شيء جاهزا، السرير والفطور بالمناسبة.. سألتهم فأخبروني أن عليا موجود هنا.. كان في المنزل عندنا، جاء لزيارة أعمامه...

– هل نفاتحه في الموضوع اليوم؟

– أضحكتني.. ماذا لو زوّجناك بفتاة من بلادنا، ستحصل على الجنسية.. ربما يكون أفضل لك

– يبقى القفص قفصا، هو سجنٌ، ولكن بشكل آخر.. أنا طائر يحبّ الحرية والتحليق عاليا، لا أريد الأسْر.. أنتمي إلى شعب يسمّى بالبربري، ويُعرف بتاريخه النضالي ومقاومته الشديدة لأشكال الاحتواء.. كيف تريد لي أن أقبل بأسْر امرأة؟

– الزواج ليس أسرا.. الزواج يحرّرك من غرائزك، يجعلك سويّا.. لا تلق للموضوع بالا، أردتُ فقط أن أمازحك...

– أفضّل أن لا نكلم عليا بموضوع السفر اليوم، ليس من أدب الضيافة أن ندخل وفي أيدينا مشقّة لمن يستضيفنا، لنتركها إلى وقت آخر.

– نكلّمه وقتما نشاء.. هو أحد أفراد العائلة وأعرفه جيدا ما عليك هو أن تستريح لأيام وتأخذ نفسا.. لا تدري، قد تغيّر رأيك وتقّرر البقاء، وفي غضون ذلك ستتعرّف على بلادنا سنزور بعض الأماكن، لكن لا تنس أنك إذا قرّرت التوجّه نحو أوكرانيا فعليك أن تأخذ الموضوع بجدية، الحياة هناك مختلفة،

سيكلّفك العيش فيها الإنفاق، وعليك أن تتدبّر أمورك بنفسك هناك.

– ليس هذا مشكلة، أنا متعوّد على تدبّر أموري عندما كنت في وطني، لم أكن في وضع مريح كما تعتقد، أنا أعمل دائما.

– لكن لماذا اخترت أوكرانيا؟ ما الذي أعجبك في هذه الدولة؟

– كنت أنوي دخول روسيا، لكن أصدقائي أخبروني أني لن أستطيع مقاومة البرد فيها، قيل لي أنها تشبه كندا في برودتها، لذلك اخترتُ أوكرانيا، ولدي سبب آخر هو أن أوكرانيا تعيش وضعا اقتصاديا حسنا، فهي الثانية بعد روسيا في ترتيب النمو بالمنطقة..

– لا تستهن بالموضوع، الحياة في أوكرانيا ليست سهلة، لابدّ أن تكون متعلّما لتعيش فيها.. أوكرانيا دولة مصنّعة، لديها منتجات متطوّرة، هي تنتج كل مبتكرات التكنولوجيا، بما فيها الصناعات الفضائية.

– عموما هي أقلّ برودة من روسيا وكندا..

– هل سافرت إلى كندا؟

– زرتُ كندا خلال سنوات مضت في إطار الهجرة الانتقائية التي تتم بالقرعة، مكثتُ فيها سنة ثم غادرتها بسبب مناخها شديد البرودة.

– هل أبواك مازالا حيّين يا إبراهيم؟

– سؤالك ينتمي إلى عالمنا وليس إلى عالمكم! نحن فهمنا أنكم في الدول الغربية تخلّيتم عن التكافل الاجتماعي! هل بقي لهذا النوع من السؤال مكان بينكم؟ أنتم منحتم دور الأسرة لمؤسّسات الرعاية، التنظيم عندكم بلغ درجة إعفاء المجتمع من التكافل مع الطبقات الضعيفة، عكسنا نحن الذين مازالت مسؤولية المجتمع تقليدية عندنا، فرعاية الأبوين عندما يكبران مسؤولية الأبناء.

نعم، والدتي ووالدي حيّان ومازالا في كامل قوّتهما، كما أن لديّ أختان وستة أشقاء، وكما قال أحدهم وتاسع سيأتي...

أضحك ويستغرب محمد..

– ما الذي يضحكك؟

– يوجد شاعر فلسطيني اسمه محمود درويش، يقول في قصيدة مخاطبا الاحتلال الإسرائيلي "أطفالي ثمانية، وتاسعهم سيأتي بعد صيف".. نحن مجتمعات تحارب تحديد وتنظيم النسل.. الهواء الطلق رحبٌ عندنا، والحرارة المرتفعة تسمح بالنوم في أيّ وادٍ أو على أيّ مرتفعٍ.. نحن نعيش يومنا.. غدنا خارج الحسابات.

– وصلنا يا إبراهيم، على بُعد أمتار سنتوقّف.. المنزل يقابلك هناك

تتوقف ساعة الزمن عندي في انتظار ضبطها بتوقيت أوكرانيا، يختبرني محمد مرة أخرى..

– هل عانقت روحك شيئا هنا؟

أردّ بسخرية..

– روحي تعانق هناك.. كييف تحلّق فوق رأسي وتغوص في أعماق قلبي..

– لا أشكّ في ذلك، فأنت لا تبدو مرتاح البال هنا، أنت مشغول الذهن شارد معظم الوقت.

– منذ البداية كنت قد قرّرتُ اتخاذ مقدونيا محطّة عبور، من الصعب أن تغيّر قناعة بنيت عليها خطة، إذا هدمتَ جزءا، وجب إعادة تشييد بناء جديد من أساسه..

نستهلك أياما في الحديث عن أوروبا الشرقية.. عادات شعوبها وتقاليدهم، أحشر أنفي أكثر في أوكرانيا، أسأل عن العمل فيها، أفتّش عن زاوية للمستقبل، أستمرّ في الإمساك بخيط الأمل.. هذا هو صبر الجمل!

****

تمضي الأيام التي أقمتُ فيها في مقدونيا، فنقيس امتداداتها بالأسابيع.. تستمرّ في المضيّ ونوشك أن ندخل مرحلة العدّ بالأشهر.. أحاول أن أهرب بعقلي إلى أوكرانيا، الخلاص من هذه العثرة هو استيعاب الحياة هناك في كييف قبل الوصول إليها.. عزائي الوحيد لأيامي التي ضاعت هنا...

أنتقل أنا ومحمد في رحلات إلى مناطق قريبة من سكنه، فنزور بعض المدن والقرى، ونلتقي بأصدقائه الذين يتردّدون إلى أوكرانيا، فيحكون لنا عن الحياة فيها.. أحاول أن آخذ موقعا لنفسي في الحديث بينهم، فأنتقي صورا عن أخبار الصحراء.. عن خيرات منيعة وبترول حاسي مسعود.. أروي لهم غرائب فيافي برج باجي مختار وقصص الذين تاهوا فيها ثم ماتوا عطشا أو نجوا في اللّحظة الأخيرة ونقل التلفزيون أخبارهم وشهاداتهم.. يفهم محمد بأني أسلّي نفسي في انتظار جديد مواصلة سفري فيهمس في أذني..

– لا تقلق، لقد رتّبتُ أمورك في أوكرانيا، غدا أو بعده يصلنا الردّ من علي، قبل ساعة كنت في اتصال معه، أخبرني بأنه يوشك أن ينهي تحضير وثائقك الإدارية لدخول كييف، ستنتهي مهمتي وواجبي تجاهك بمجرّد مغادرة الأراضي المقدونية، لكن مرحبا بك إذا أردت العودة مرّة أخرى، لا تنس أننا دعوناك لمصاهرتنا.. الحُسن هنا مرتّب بتمام، لن تجد أفضل منه... في أوكرانيا ستشتريه من العائلات بالدولار!.

أصبح تجاوز تصرّفات محمد الطريفة سلوكا تقليديا عندي، أجيبه بغُبن الغريب..

– حين أستلم وثائق السفر بين يديّ وتدوس قدماي كييف.. حينها فقط سأصدّق نفسي... مازلتُ غير واثق من سهولة السفر، أسوء ما في طباعي أني لا أثق في شيء...

– لم أشأ أن أخبرك بأن وثائقك جاهزة حتى تستلمها، لكن بما أنك في حيرة فأبشّرك بأن كل شيء قد تمّ، المشكلة في انشغال عليّ ببعض أعماله، حين يُتمّها سيتصل بنا.

نعود أدراجنا في كل مرّة نخرج فيها بالقصص الرائعة للواقع الفاشل الذي عشته وعاشه أصدقاء محمد، وفي أنفسنا قناعة بأن ما نحكيه دائما هو غير ما كنّا نعيشه فعلا.. نعود ونحن مقتنعون بأن أعظم اللحظات التي تخلّدها ذاكرتنا وتخطّها أقلامنا هي تلك التي طُبعت بالمعاناة، لذلك تتلاعب بها أخيلتنا وتنمّقها ألفاظنا.. نحن دائما نَحْبِكُ أفضل النسيج وننتقي أفضل الألفاظ لستر أشنع المعاني، فنكتب قصص خيباتنا وفشلنا ونسميها أدبا، ثم نعرضه في رفوف المكتبات ويشتريه الناس وهم يحلمون بأن يعيشوا قصصا تشبهه.

يكسر محمد جوّ الصمت الحزين وتفضح نبراته أسفا يُشبه أسفي.. تفضح نبراته مَدًى توقّفنا عاجزَيْن عن بُلوغِه..

– هل تواصلت مع عائلتك في الجزائر؟

– لا ليس بعدُ.. نفسيّتي لا تسمح بالنظر في أيّ أمر ولا سماع أيّ خبر، وأنا بعيدٌ، فلا داعي لمزيد من القلق.

– وقد تمّ إعداد وثائقك، ألا يجدر بك أن تتصل بالمنزل؟ طمئنهم على حالك.. الأنترنيت متوفّرة، وإذا رغبت في استخدام حاسوبي سأحضره لك..

– لا داعي.. لديّ هاتف، لاحقا سألقي نظرة في الفيسبوك.

ذات صباح يحملني الشوق للإطّلاع على الفيسبوك، فأنفض الغبار عن هاتفي، وأشغل الوايفي.. فينزل وابل من الرسائل عليّ عبر الماسنجر.. أتجاوزها جميعا وأبحث عن وجه شاحبٍ بينها.. يلفت انتباهي رسالة "أين أنت؟".. أقرأ في بروفايل الحساب فأجد بالعربية "أمة الله"، ألقي نظرة في أرشيف الرسائل، فإذا به حساب سلاف، غيّرت اسمه! ترى ما الجديد الذي طرأ عندها حتى تغيّر اسم حسابها؟

أتردّد في إرسال إجابة لها، وأحرص على الوفاء بوعدي، فأنا قرّرتُ أن أكون من يطلبها وليست هي.. أكتب ردّا بسيطا "لا حقا نتواصل"، ثم أغلق الحساب والماسنجر وأقطع اتصال الوايفي.

يسألني محمد..

– ما بك إبراهيم؟ هل بلغك خبر أزعجك؟ هل عائلتك بخير؟

– نعم، الأمور بخير، مازالت الحيرة تنتابني تجاه سفري.. أطلتُ المكوث هنا.

– أنا سعيدٌ بوجودك عندي.. لا تنزعج، مساءً سأتصل بعليّ وننظر في الجديد..

– عليّ لا يعرفني، جمعني به لقاءان.. سمع كثيرا وتحدّث قليلا.. أن يحرص على مساعدتي فهذا فضل منه!.

– علي كان يريد أن يفهم شخصيتك، هو لا يريد التورّط مع مهاجرين لا يعرفهم أو أشخاص مشبوهين، سُمعَتُه تهمّه كثيرا..

– له الحقّ في ذلك، لو كنت مكانه ربما لم أجرأ على مساعدة شخص لا أعرفه.

– عليّ له قدرة عجيبة في قراءة الشخصيات.. أراد مقابلتك لتكوين فكرة عنك قبل أن يقرّر إن كان سيساعدك أم لا..

– وماذا قال عنّي.. هل يمكن أن أعرف؟

يضحك محمد..

– هل تخشى أن يكشف أمرا سريا؟

– لا.. ليس لديّ ما أخفيه، أنا كتاب مفتوح

– لم يقل عنك شيئا سيّئا، اكتفى ببعض الإشارات

– هل يمكن أن أعرف هذه الإشارات؟ مجرّد فضول.

– قال إنك إنسان يبحث عن ذاته، إنسان لم يستوعبه مجتمعه فخرج غاضبا منه.

– يبقى هذا مجرّد رأي، أحترم قراءته لشخصيتي، لكنني لا أبحث عن ذاتي.. ذاتي معي.

– هل تقبل منّي رأيا ولا تغضب؟

– طبعا.. أنا أستمع، قل ما تشاء..

– أنا جرّبتُ الغربة وتنقّلت إلى عدد من الدول وعشتُ فيها، وأنت مثلي جرّبتها.. ليس أدوم ولا أفضل من الوطن، مهما كانت المعاناة وصعوبة العيش فيه.. قد تكسب المال في بلد آخر، لكنك ستفقد أشياء أخرى، ستعيش فاقدا لروحك.. مجرّد آلة للعمل، هذه القناعة هي التي جعلتني أعود إلى مقدونيا.. أنا أمقتُ فكرة إفناء شبابي في الغربة، ثم العودة آخر العمر إلى الوطن.. مؤسف حقا أن نقضي حياتنا في تشييد أوطان الشعوب الأخرى بينما نضيع أوطاننا.. نحن دفعنا ثمن احتمائنا بوطن آخر، لقد تم استغلالنا إلى أقصى درجة، هذا هو قانون الحياة، إما أن تبني وطنا قويا تعيش فيه، وإما أن تلجأ إلى وطنٍ صنع أبناؤه قوّته، فتدفع ثمن احتمائك به..

ما أصعب الكلام على الكلام! ماذا عساني أقول لصاحب الدار في داره وهو ينصحني أن أعود إلى داري؟.. لا شفاء من كلامه إلا بالرحيل في أقرب وقت ممكن إلى أيّ مقبرة أخرى على وجه الأرض تسمى عند أهلها وطنا وأنادى فيها غريبا.. جمعنا الدين الواحد ولكن عجز عن جمعنا هذا الوطن!.. على كلّ، هذا وطنه وليس وطني.

أضاف محمد رصيدا آخر لقناعتي، أوجعني كلامه ولكنه صدقني.. صرتُ أقرب إلى الجزائر من أوكرانيا وأنا في قلب عاصمتها كييف.. ما أصبحتُ بحاجة إليه هو تعزيز قناعتي

بتجارب أعمق، فأنا لا أريد أن أعود إلى الوطن خالي اليدين وفارغ القلب من الحقد.

أصبحتُ أبحث عن مزيد من الكراهية لفكرة الهجرة، أمضي وقتي في تتبّع العقبات، أبحث بعين السخط عن المساوئ.. نفسي بحاجة إلى شحنة مُثقلة ومشبّعة بقناعات جديدة، أرغب بتصحيح نظرية البقاء في علاقتها بالوطن...

ها أنتِ ذي أوكرانيا بين يديّ، فما أنا فاعل بنفسي فيك؟!.

يودّعني عليّ كمن يتخلّص من عبء ثقيل وهو يدسّ بعض الأوراق النقدية في جيبي.

– أنت في أوكرانيا وتحتاج إلى المال.. خذ هذا المصروف، وإذا لم تجد مكانا للمبيت فبإمكانك العودة إلى هنا، إلى حين تعرّفك على المدينة والحصول على وظيفة وغرفة للسكن.

– لا داعي لذلك، أوفيتَ الواجب وزيادة، بحوزتي ما يكفي من المال، لديّ بعض المعارف هنا، سأتصل بهم وأتدبّر أمري

يبتسم عليّ سعادةً بسماع هذا الخبر.. أنصرف ويتبدّد خيالي أمام عينيه حتى أختفي.. أخرج ورقة كان قد تركها لي أحمد، فيها عنوان أحد أصدقائه، وكنت قد كتبتُ العنوان فيها بالحروف العربية واللاتينية..

أتذكّر أن أحمد أخبرني عن ساعد، قال لي بأنه يقيم ويعمل في قلب كييف لصالح تاجر تركي.. أتوقّع أني في نقطة قريبة من

عنوانه.. شارع خرشتشاتيك، في اتجاه ميدان نيزالزنوستي، قريبا من نصب الحرية..

أسلك الشارع الرئيسي في اتجاه العنوان، ويساعدني بعض الناس الذين أسألهم، إلى أن أصل إلى المكان، العنوان يقودني إلى المنزل وليس المحلّ التجاري.. أطرق الباب.

يفتح شاب.. نندهش ويصمت كلانا..

– مرجان!..

– زهير!..

– كيف وصلتَ إلى هنا؟

– حصلتُ على العنوان من أحمد، ذلك الجزائري الذي قال لي أنه كان في روسيا

– نعم.. هو صديقنا، تفضّل..

– يا ساعد.. وصل صديق عزيز أرسله أحمد، هل أسمح له بالدخول؟

يعتذر مرجان وهو يقول..

– أنا أيضا ضيف هنا، لذلك طلبتُ إذن ساعد لدخولك، رغم أني أعرف بأنه سيستقبلك بحفاوة، أرجو أن تتفهّم الأمر..

أدخل ونأخذ نفسا عميقا، نحدّق في بعضنا طويلا، يتعجّب مرجان لوجودي في أكرانيا، وأتعجّب لكوني تحدّثتُ مع أحمد عنه ولكن لم أنتبه إلى أنه يقصد صديقي الذي أعرفه منذ زمن بعيد.. أتذكّر بأنه لا يعرف اسمي الثاني إبراهيم فأخفي الأمر..

– حدثني أحمد عن صديق يريد دخول روسيا، وطلب مني مساعدته، لكني لم أعرف أنك أنت هو!

– كذلك الأمر معي.. أخبرني بوجود صديق له في روسيا وقال أن اسمه مرجان، لكن لم يخطر على بالي أن تكون أنت هو، توقّعتُ أن يكون شخصا آخر!.

– منذ متى وأنت هنا؟

– كنت في روسيا، لديّ أسبوع فقط منذ مجيئي إلى أوكرانيا وسأعود بعد أيام قليلة.. أنا أواصل الدراسة في جامعة بموسكو.. دفعتُ مبلغا باهضا للدراسة هنا، كان خطأ فادحا!

– لم الخطأ؟

– الحياة صعبة وفرص العمل قليلة، لو أنني توجّهت إلى فرنسا أو كندا لكان أفضل.. ماليزيا أيضا تتوفّر على مناخ جيّد للدراسة والعمل، أفضل من روسيا.. تسرّعتُ كثيرا..

– ستقيم معنا.. السكن متّسع ويكفي جيشا من الضيوف، لكن ما صفة إقامتك هنا؟

– شهر قابل للتمديد..

– التمديد ليس حلاّ، قد يسمحون لك بشهر آخر أو شهرين، لكنها تنتهي أيضا.. لماذا لم تطلب إقامة بثلاثة أشهر؟ لو طلبت بهذه الصيغة كان أفضل لك.. على كلّ فإن بقاءك أكثر من ثلاثة أشهر هنا يستلزم تبريرا بوثائق قانونية..

– كيف أسوّي هذه الوضعية؟

– ليست مشكلة، فأكثر المقيمين من العرب ومن دول أوروبا الشرقية الأخرى يلجؤون إلى طريقة غير مكلفة ويبقون هنا سنوات.. قبل انتهاء صلاحية الإقامة يخرجون عبر الحدود، ثم يعودون في غضون ساعة أو أقلّ لختم جواز السفر، هنا تحتاج فقط إلى تغطية نفقات معيشتك، مع المحافظة على السيرة الحسنة حتى لا تعتقلك الشرطة.

اتبعني لأعرّفك بالسكن، يوجد لدينا مطبخ وحمام مشتركان تستطيع النوم في الغرفة التي تشاء، هما اثنتان فقط..

عندما تستعيد راحتك سنخرج وتتعرّف على المدينة، لدينا أصدقاء عرب هنا، ونحن نساعد بعضنا، أحيانا نجمع المال لمن يمرّ بظروف صعبة كالمرض أو البطالة، لكن هذا التضامن موجود بيننا نحن العرب فقط.

– هل أصبحتَ تعتبر نفسك عربيا يا مرجان.. عندما كنا في الجزائر كنت تقول نحن القبائل وأنتم العرب، كنت حادّا في تصرّفك وعدوانيا، ماذا حلّ بك؟

يفتح مرجان عينيه جيّدا وهو يقول..

– فعلا كنت كذلك، وعندما نعود إلى الجزائر سأستمرّ في قول هذا الكلام، في أوطاننا نستطيع ممارسة السياسة، أما هنا فلا يحقّ لنا ذلك.. هنا نصبح جميعا عربا!..

– ماذا تدرس في روسيا؟

لم أغيّر تخصّصي، ومن الصعب أن أفعل ذلك، أنا أكمل دراسة الأدب، لكني أدرس الأدب الروسي، أنا أدرسه باللغة العربية، إلى جانب دراسة اللغة الروسية، فهذا من شروط التكوين هنا، لاحقا سأعلّمك الروسية!.

– يقول المثل عندنا "بات مع الجاج.. صبّح يقاقي"، قضيتَ ليلة في روسيا فأصبحت تعلّم غيرك لغة أهلها.. حين تتقنها لنفسك تعالى وعلّمني إياها.

يرتفع صخب ضحكنا مدوّيا في رواق السكن وتلوح بشائر الأمل في الأفق.. بنى ثلاثتنا وطنا صغيرا في بلاد الغربة، يضحك ساعد وهو يقول له: "يمّاك آيا عرابن"، ثم يُترجم لي مرجان..

– أتسمع؟ هو يقول لي.. أمّك أيها العربيّ.

– فهمتُ ما قال.. هل مازلتَ تصلّي؟ ستبقى قِبلتُك في اتجاه العرب وإن سكنت القطب المتجمّد الشمالي..

– أكثر من ذلك.. أقرب أصدقائي إليّ شاب فلسطيني، نقضي أوقاتنا معا في روسيا، وعندما جئتُ إلى أوكرانيا، وجدته بالصدفة هنا، فأكملنا مشوار الصداقة، وسيعود في اليوم نفسه الذي أعود فيه إلى موسكو.. هل تغضب.. ورقم بطاقتي خمسون ألف..

يدوّي التصفيق في الرواق، كأننا نحيّيه لهذه لشجاعة في الاعتراف.. يأخذ ساعد وضعية حامل البندقية في الأعراس ويصرخ "دَيْ دَيْ"، فيطلق مرجان العنان لجنونه ويرسل زغردة

حادّة، فأشير إليهما بأن ضجيجنا ربما أصبح يُسمع في الشارع، وأحدّث نفسي "أنا لا أريد أن يصفنا الناس بالهنود الحمر"، تطرق الفكرة رأسي وأنا أتذكّر نبز الفرنسيين للجزائريين المهاجرين حين يسمعون الزغاريد في أعراسهم..

يمضي المساء ونقضي معظم الليل في الحديث عن الوطن، نجوب كل أقاليمه من الشرق إلى الغرب.. نتفلسف في كل المجالات، من السياسة إلى الاقتصاد إلى الفن، ونتوقّف كثيرا عند النوادر والطرائف، نستعظم أتفه الأمور، وتتحوّل أبسط القضايا إلى ملفات ساخنة، يسأل مرجان ساعد..

– لماذا نرى هذه الأمور عادية حين نكون في الوطن، وتصبح جليلة عندما نبتعد عنه؟

نروّح عن تعبنا ونحن نلهث وراء مواضيع أكبر منّا.. نعدُّ مجانين القرية وخصالهم، ثم نتسلّل للحديث عن عشاق الليالي المقمرة.. لا يسلم أحد من لساننا، بما في ذاك إمام القرية، يحكي مرجان غلطة إمام المسجد عندهم وهو يلوّح بيديه ويضحك..

– سي العياشي أخذ قيلولة حتى انتفخت عيناه واستيقظ فزعا معتقدا بأنه تأخّر عن رفع أذان الظهر، فخرج من بيته مسرعا إلى المسجد، وحين أذّن زاد تثويب الفجر "الصلاة خير من النوم"..

يعقّب عليه ساعد بقصّة أخرى عن إمام مدينتهم الهرم الذي يعتمد على ابنته المتخرّجة في الجامعة في إعداد خطبة الجمعة..

– قرأ الإمام "إنّ الزنا عَمَّ والرِّبا طَمَّ، اه من هذا الزمان ثم اه" متصلة "إن الزّناعِمَ والرّباطِمَ"، وكان يظنّ الألف والهاء في الجملة التي بعدها "اه من هذا الزمان ثم اه" أرقاما هندية، فقرأها "51 من هذا الزمان ثم 51"..

اختطف النعاس أوّل واحد صمت بيننا، ثم بسط جناحه إلى الثاني، بينما فضّل آخر متكلّم أن يسلّم نفسه بيديه لسلطان الليل.. قبِل حارس الجفون عربون ساعد، وألقى ستار السلام على ثلاثتنا، إلى أن لاح خيط النور من النافذة، فأسرع ساعد للخروج إلى عمله وهمس لي في هدوء..

– الوقت مبكّر، لا تقم.. أكمل النوم فأنت متعبٌ، ولا تغادر إلى مكان آخر، يجب أن تبقى معنا وسنتدبّر شؤون بعضنا.. المفتاح عند مرجان وهو سيوقظك حين يطلع النهار، في المساء سنلتقي.

****

... يطلع النهار، وتزداد رغبتي في معاينة كل شبر وتفقّد كل زاوية.. هذه الأرض قد تصبح مستقرّا لي، كييف التي قرأتُ عنها كثيرا تغريني بهندسة معمارها القريبة من هندسة روسيا، مشاهد القباب التراثية الملوّنة والأسوار الحصينة تقول حكايات لم أطّلع عليها، أرى آثار عملاق الاتحاد السوفياتي المندثر في

شوارعها، أتخيّلها رجلا يقوم من سقوطه ويوشك أن يكمل وقوفه.. تخبئ كييف مثل كثير من الدول التي استقلّت عن الاتحاد السوفياتي قصصا مروّعة عن المؤامرات الليبرالية والجوسسة.. أسرار كثيرة تخفيها عن الحرب الباردة والاستعداد لمواجهة مخاوف ومخاطر الحرب النووية.. بهذا التصوّر الذي لقّنته لنا المدارس في أوطاننا كنت أقرأ هندسة عمران كييف والتواءات طرقها، وبين فكرة وفكرة، تفلت من خيط شعوري خواطر أخرى تقول إنه لا وجود لصراع أو حرب، لا باردة ولا ساخنة، كل ما كان هو تنافس مصالح بين قطبين للاستحواذ على خيرات الشعوب الضعيفة، فصار العالم مقسّما إلى تابع لهذا وتابع لذاك.. تقول لي نظرياتي السياسية التي صنعتها تجاربي الخاصة إن صراع الذئاب لا ينتهي بإفناء بعضها، وإنما ينتهي بتشتيت قطيع النعاج الذي يجري التنافس من أجل الاستحواذ عليه، فلا يأكل الذئب لحم ذئب، ونأكل نحن شعوب المعمورة الضعفاء بعضنا بعضا عيانا.. أُجمِل القول في لساني، وأفصّله في نفسي.. نحن تعني.. نحن الشعوب العربية المسلمة.

يؤدّي مرجان دور الدليل السياحي معي، وكما جاء في معنى المثل الشعبي "الأحول في بلاد العميان أزرق العينين".. سرتُ تحت بصيرة الأحول وبصره، رغم أني أعلم بأن مرجان لا يعرف عن أوكرانيا شيئا عدا الشارع الرئيسي الذي يربط المدينة بمقرّ سكنه.

– نسير في هذا الاتجاه حتى لا نَتُوهَ، سوف نقصد ساحة مشهورة يوجد بها نصب الحرية، هو معلم شهير، ويعتبر أحد رموز أوكرانيا المستقلّة عن الاتحاد السوفياتي.

– أنت أعلم بالطريق مني، ولكن لن نبتعد كثيرا اليوم..

– هل ترى ذلك المبنى؟ يوجد به مكتب لشركة طيران أوكرانية، مدير فرعها جزائري من أم أوكرانية، يسافر إلى الجزائر كل سنة، لديه سيارة فخمة، وهو يفكّر في شراء سكن في باريس وربّما سيؤسّس شركة خاصة فيها...و...

أقطع كلامه بتدخّلي مستعينا بتجربة ثقيلة في التعامل مع أشخاص من نوعه، تشبه تجربته الثقيلة في فتح مواضيع من هذا النوع.. فأطرح عليه السؤال الذي لا يحبّه ويحمل ألف معنى!..

– هل تعرفه؟

– لا، هو صديق ساعد، حدثني عنه أكثر من مرة.

– صديقه فعلا أم التقى به مرة؟

– حجز ساعد تذكرة سفر مرّة لدى الشركة التي يديرها.. تبادلا حديثا عابرا عندما سعى إلى تغيير تاريخ الرحلة..

– بذلت مجهودا كبيرا يا صديقي مرجان في سبيل تقديم شخص لي، أنت نفسك لا تعرفه، وساعد تحدّث معه بضع ثوانٍ وهما واقفان.. لا يفيدنا أمره في شيء!..

– هل تعلم بأن السياح يُقبلون كثيرا في اتجاه أوكرانيا، ويقصدون كييف بشكل أكثر.. معظم الوجوه التي نلتقي بها في

الطريق أجنبية، أغلبهم من أوروبا الغربية وأستراليا وكندا والولايات المتحدة الأمريكية، وفئة معتبرة من عرب الخليج، أما نصيب إفريقيا فلا يكاد يُذكر... الجزائريون يُعدّون على الأصابع.

– من أين لك بهذه المعلومات؟ هل هي إحصاءات رسمية أم استنتاجاتك الشخصية؟

يضحك مرجان..

– يعني أنا أقدّم قراءة في ضوء الواقع وظروف الشعوب..

– هل نعتبر أنفسنا من السياح أم من الأفارقة الذين لا يوجدون هنا؟

– لا تحرجني يا زهير.. قد تسمع كلاما سطايفيا الآن، لا تجعلني أخدش الحياء العام؟

– اخدش أو لا تخدش، الأمريكيون أمامك والبريطانيون خلفك.. أنت أضيع من الإفريقي على مائدة الفرنسي في بلاد لا يفهم لغتك فيها أحد!..

نضحك كثيرا، نحدّد موقعنا بدقّة في هذا العالم، ونرسم حدودنا لنعرف قدرنا!.. من أراد التحدي فعليه بالعودة إلى وطنه أولا، ثم العمل ليل نهار ثانيا، لعلّه يحجز مكانا مشرّفا بين الأقوياء..

– تذكّرتُ في هذه اللحظة واقعة حدثت منذ فترة يا مرجان.. هل تسمعها مني؟

في غمرة الخلافات بين الدول الغربية وهي تتصارع من أجل مصالحها في العالم الثالث، وبمناسبة تنافسها في الشرق الأوسط، تم منح الكلمة في مجلس الأمن لدولة لا تسمح مقاييس الرسم بوضع نقطة للإشارة إليها في الخريطة، فخاطب ممثلها نظيره الروسي قائلا "على روسيا أن تتوقّف عن التدخّل في شؤون المنطقة!".

هل تعرف ماذا حدث؟

أجل، لقد أخذ الدبلوماسي الروسي الكلمة مباشرة، ونزل مثل دبّ قطبيّ على مسامع هذا الممثل الأمميّ قائلا "حين يتحدّث الكبار، على الصغار أن يسمعوا فقط، إذا زدت كلمة واحدة فلن يبقى وجود لدولتك على الخريطة".. ضحك سكّان الفيسبوك جميعا وهم يتساءلون.. هل كان لهذه الدولة وجود في الخريطة حتى تزول؟.. وتأسّف بعض الشرفاء لدبلوماسية لا تحسن التحكّم في لغتها والتعبير عن مواقفها.

– وهل زالت الدولة من الخريطة؟

– لا، لأن صديقنا لزم مكانه ولم يتكلّم بعد ذلك..

نضحك ضحكا شديدا، ويهمس مرجان في أذني.. هل هذا الممثل عربيّ؟

نجلس في كرسيّ داخل حديقة كنا نمرّ بها وأنا أجيبه..

– نعم، حاكم عربي.. ولن تدخل بلاده الفخمة ولو في الحلم، رغم أنك اعترفت أمام العالم بأنك عربيّ.. هل ترغب في أن أُسمعك أكثر؟.

ينطق شيخ مشرّد يقبض بيده على كيس كبير مملوء بالملابس القديمة كنا قد جلسنا قريبا منه..

– عربٌ يضحكون على عرب!

نصمتُ ونحن ننظر إلى بعضنا..

– هل اندهشتما؟ من أيّ منطقة أنتما؟

– أنت تتكلّم اللهجة الجزائرية! هل أنت جزائري أم عملتَ فيها مع الشركات الأوكرانية؟.. نحن من منطقة الشرق.

– أنتما من قسنطينة أم جيجل أم سطيف.. أم بجاية؟

– نحن من سطيف.. هل تعرفها؟

– هل مازلتم تشربون ماء عين الفوارة؟

– مازلت لم تعرّفنا بنفسك.. عنّا نحن فقد فتحنا لك باب الدار وأدخلناك!

– أنا من قسنطينة، أو كنت من قسنطينة.. تستطيعان مناداتي عمي الصالح..

يغرق عمي الصالح في حديث طويل عن مدينة قسنطينة التي غادرها منذ خمسين سنة ولم يعد إليها، ويذكر أسماء أصدقاء الطفولة فيها ويسأل إن كانوا مازالوا أحياء أم ماتوا!..

– تربّيتُ في قسنطينة، تسلّقتُ صخورها، تسكّعتُ في شوارعها، سرقتُ الفواكه في أسواقها.. كان ذلك منذ أكثر من خمسين سنة، ولم يخطر ببالي أن أتركها دون عودة.. بعد الاستقلال، هاجرتُ إلى فرنسا مع من هاجر، رغم أني لم أكن بحاجة إلى ترك البلاد، حينها وجدتُ نفسي بين أصدقاء قرّروا التوجه نحو فرنسا للعمل فيها، فسافرتُ معهم، وحين وصلتُ إليها بقيتُ فيها ثمانية أشهر، فتعرّفت على رجل أعمال له مشاريع في أوكرانيا، فأحضرني للعمل معه، وهنا بدأتُ حياة جديدة، حيث عملتُ في مشروعه بمدينة خاركوف أربعة أشهر ثم بحثتُ عن عمل آخر.

كانت وجهتي الأولى بعد خاركوف مدينة أوديسا، وجدتُ فيها عملا في وقت قياسيّ، وبقيت معاناتي مع مشكلة السكن، إلى أن تزوجتُ بامرأة أوكرانية، وفي أوديسا قضيتُ كلّ حياتي، لكن النساء ملّة واحدة، لا فرق بين عربية وفرنسية وأمريكية.. بسبب خلاف بسيط، قامت بطردي من المنزل، ولم تحترم عِشرة السنوات التي كانت بيننا، حيث أحضرت الشرطة.

– أليس لك أبناء معها؟

– لديّ ثلاثة أبناء.. لا تسألني مرّة أخرى، هنا تختلف التقاليد، الأبناء انصرفوا كلٌّ لوجهته، البنت الصغرى خرجت لحياتها الخاصة في سنّ الثامنة عشر، أمّا الولد فسافر مع صديقته إلى ألمانيا منذ سنوات ولا أعلم عنه شيئا، أما البنت الأخرى فلا

معنى لوجودها بالنسبة لي.. الأبناء هنا ليسوا مثل الأبناء عند العرب، الأسرة أيضا شيء آخر.. ليس هذا خطئي..

منذ ثلاثة أيام مات رفيقي في هذه الزاوية، هو إيطالي من أصل فرنسي، كبير السنّ ومنهكٌ جدا.. لم يبق منه إلا لسانه وذاكرته حيّان.. أحيانا أسحبه عندما ينزل المطر لأوصله تحت شرفة ذلك المبنى لأنه لا يستطيع المشي، جاء مثلي إلى أوكرانيا هربا من فرنسا التي أرغمته سلطاتها على المشاركة في قمع الشعب والتنكيل به خلال فترة تجنيده التي قضاها في الجزائر، كره فرنسا لهذا السبب ولم يُطق البقاء فيها، وحين دخل إلى أوكرانيا قرّر أن يتزوج بامرأة منها وأخذها معه إلى إيطاليا حيث عاشا هناك مدة طويلة، ثم عادا إلى أوكرانيا واستقرّا بها، ووقع في المشكلة نفسها التي وقعتُ فيها معها.

– هل تريد أن تقول لنا شيئا آخر؟

– وأنتما ماذا فهمتما؟

– فهمتُ بأنك تنصحنا أن نعود إلى الجزائر.

– إذا كنت فهمتَ، فماذا تريد بعد هذا؟

– مصائر الناس تختلف..

– لو أن الحياة تعود إلى الوراء لكان لي تصرّف آخر.. لكن فات الأوان، ولن أعود شابا كما كنتُ من قبل.. ارجعا إلى وطنكما ولا تمنحا الندم فرصة، فالندم لا يأتي إلا بعد فوات الأوان... إذا كنتما مهاجرين فقد وصلتكما الرسالة، وإن كنتما

سائحين فهي مجرّد قصّة يمكنكما أخذها مع التذكارات التي اقتنيتماها إلى سطيف.

– نحن متعبان من السفر، وربما أنت كذلك متعب.. هل أسدي لك خدمة؟

– أنتما لا تريدان سماع كلامي، تريدان التهرّب من الحقيقة، أنتما لا ترغبان في مواجهة الواقع.. غدا تجداني هنا، سأنتظركما..

يوقّع مرجان على كلام عمي الصالح..

– الحقيقة يا زهير هي ما سمعناه، أنا لن أبقى في روسيا، سأكمل دراستي وأعود إلى الجزائر، منذ البداية وقبل مجيئي كانت هذه خطتي.

– تعود إلى الجزائر وتشارك في مسابقة توظيف لتدرّس اللغة الروسية؟

– سأعود ولكن لن أعمل في التعليم، لا أريد أن أعيش فقيرا، لدينا أراضٍ فلاحية كافية سأستثمر فيها أو أفتح مشروعا تجاريا.. أنا لا أدرس من أجل الوظيفة يا زهير، أنا أدرس لأكوّن نفسي.. أريد أن أستغلّ فترة الشباب في الدراسة والسفر واكتشاف العالم، لن أعيش مرّتين في هذه الحياة..

– هل قال لك أحدٌ أني أعيش أكثر من مرّة؟ لستُ قطّا بسبعة أرواح، أنا مثلك أملك روحا واحدة.

نعود إلى السكن، وأقرّر أن لا أخرج منه إلا في الغد، ومن أجل الجلوس مع عمي الصالح فقط، هو وحده يختزل العالم، يرفض مرجان فكرة العودة إلى عمي الصالح ويرسم خطة لجولة استكشاف فردية، فيَرُوق لي الأمر، فأنا أريد أن أكتشف أمورا تدخل في خانة السرّي جدا عندي.. شيءٌ ما سأحصل عليه من عمي الصالح، لكني لا أعرف ما هو بالضبط؟

يطلب مرجان صديقه الفلسطيني للسهر معنا، فيأتي في وقت مبكّر.. نستقبله بديكور خاص يجعله يقبّل رأس مرجان.. في الجدار المقابل للباب علم فلسطين معلّق إلى جانب علم الجزائر، وفي الجدران الأخرى قصاصات ورقية تتضمن قصائد حول فلسطين وصورا للقدس..

يطول عمر السهرة وتطول أعمارنا بالحديث عن فلسطين، فعباس خبير بتاريخ وطنه منذ العصور القديمة، يتحدث عن كل شيء، ويُثني على دور الرّوس في مساعدة الفلسطينيين، ولا يخفي علاقاته ببعض الشخصيات السياسية والمناضلة في مختلف البلدان، وأفهم من كلامه بأنه يعمل لصالح تنظيمات تموّل المقاومة الفلسطينية.. تتسرّب من لسانه إشارات مقصودة عن اختراقه لعدد من التنظيمات السرية التي تعمل في مجال التهريب، يختم السهرة بالقول، كلّكم جزائريون هنا.. إذا سأبيت عندكم.

مع أوّل الصباح، يطرق نعلي بلاط ساحة الحديقة التي يتواجد عمي الصالح فيها، أحسّ بوقار عظيم وأنا أستمع إلى

وقع خطواتي على الأرض وأرغب في رفع صوتي أمام الجميع "انتبهوا.. فأنا جزائريّ"، ثم أتوقّف وأمعن التأمل مع نفسي.. "لكلّ وطنٍ كبارُه وعظماؤه، ولكلّ وطن أيضا صغاره وخونته.. نعم لأكرانيا، مثلها مثل روسيا وألمانيا عظماؤها الذين رفعوا رايتها وصنعوا مجدها أمام الأمم الأخرى، العبرة ليست بالتبجّح والتبختر، إنما العبرة بالإنجازات".. تزداد رغبتي في شحن نفسي بكلمات قويّة.. الإيمان بالوطن أيضا يبلى ويحتاج إلى تجديد.. أمضي وأنا أقول لنفسي "ثورة نوفمبر أعظم من كل الإخفاقات، وأعظم أيضا من أيّ إنجازات، غدنا في يدنا، سنبحر ونسبق ونصل..".

ألقي نظرة سريعة حولي فلا أجد شيئا مثيرا للانتباه.. بدأت الحركة تدبّ في الحديقة، أقصد زاوية عمي الصالح وأنا أحمل ما بقي من قهوة في فنجان بيدي.. ثم نستقرّ في حديث جديد.. تتقاطر الأيام ندى وتتعطّر برائحة الصداقة وعمي الصالح يروي قصص بطولاته مرة، وخيباته أخرى...

صار دأبي كلما توجّهتُ إليه أن أتضرّع لله أن لا يكون قد غيّر المكان أو مات ولحق برفيق محنته حيث لا رجعة، نلتقي مرّات تلو الأخرى ونجلس ساعات طويلة، نتمنى أن لا يحلّ الظلام ونتأسف لأننا لا نستطيع تغيير قانون الكون... يترك عمي الصالح أثر الحديث الذي دار بيننا في كلّ مرة في بيانات يرسمها على كفي وهو يلحّ على إبراز خطوطها بالقلم.

ألتحق بعمل بوساطة منه في مطبعة تابعة لمجموعة أعمال رجل باكستاني وأقوم بكراء غرفة في مبنى كبير يوفّر الإقامة للأجانب، وأسعى جاهدا لإحضاره معي إلى الغرفة، لكنه يرفض ويفضل البقاء حرّا، متردّدا بين المبيت في الشارع والذهاب إلى بعض أصدقائه..

تتوالى علينا صباحات وأيام ونحن نزداد ثقة وقربا من بعضنا، يغيب فيها كثيرا، ونلتقي فيها أكثر.. تحطّ كل أسئلته في الجزائر، بينما أنبش في ماضيه بحثا عن مفاتيح النجاح، وتعقّبا لمكامن الخلل التي أردته مشردا، بينما يستمرّ في التمسّك برأي واحد، هو ضرورة عودتي إلى الوطن.

****

فترة طويلة مرّت على تواجدي في أكرانيا، بدأتُ أشعر بأن الطريق مسدودة ولا بادرة تلوح في الأفق، شحٌّ كبير في العمل وتردٍّ في الاقتصاد، آن أوان تقييم مساري إلى أين وصل..

التقيتُ عمي الصالح ذات يوم وقلتُ له "أخشى أن أعود ثم أندم".. كانت هذه الكلمات أوّل تصريح مني بصعوبة الحياة هنا.. ولم يخن صديقي موقفه وبادرني مباشرة..

– هل تظن بأنك ستجد الأرض مفروشة بالورود هنا، سيشربون دمك قبل أن يعطوك أجرة شهرك.. وفي النهاية لن تجني أرباحا كبيرة، كما قد لا توفّق في الاستقرار في وظيفة دائمة، وتعيش حياة متقلّبة.

– لكني لا أملك شيئا في الوطن، هذه هي المشكلة.. ماذا أفعل هناك حين أعود؟

– تملك في الوطن وطنيّتك، أنت هناك جزائريّ الدم، لكنك هنا لست أوكرانيا ولن تكونه ولو حصلت على الجنسية، سيعطونك ورقة الجنسية لكنهم لن يعطوك الوطن، ستبقى في أعينهم عربيا ومسلما.. سيقولون عنك مهاجر إفريقي.. ألم أخبرك؟ كنتُ أظن أني حصلت على كلّ شيء هنا، ولكنني اكتشفتُ بأني فقدتُ كلّ شيء، حتى أبنائي غير موجودين بالنسبة لي، رحلوا وتركوني.. لا تزعم بأنك ستنجح في تربية أبنائك وفق عادات وطنك وتقاليده، سيُفلتون من يدك ويصبحون أوكرانيين أكثر من الأوكرانيين أنفسهم، وعندما يكبرون يتركونك ويرحلون.. هذه البيئة لها ثمارها المختلفة عن ثمار بيئتنا، لن تنجح في تربية الجمال والنخيل هنا.. هل فهمتَ؟.

تركتُ عمي الصالح وتوجّهتُ نحو سكن ساعد للقاء مرجان الذي عاد من روسيا، وفي طريقي بدأتُ أسترجع أرشيف ذكرياتي في صحراء غرداية التي زرتها مرّة، حيث قطعان الجمال وواحات النخيل الممتدّة، وحاولتُ أن أنقل المشهد من بيئة الرمال والصخر والحرّ الشديد إلى بيئة التربة السوداء والجبال العالية والصقيع، فرفض عقلي تشكيل مشهد ثالث.. فشلتُ في تركيب الصورة، فأعدتُ تأثيث مشهد الصحراء بعناصره، وتركتُ

لصورة الطبيعة الأوكرانية عناصرها، فشعرتُ بالراحة واقتنعتُ بأن المشهد مكتمل وأيّ عمليات تجميل ستشوّهه وتتسبّب له في أعراض وأمراض خطيرة.

استقبلني مرجان عند مدخل المسكن، تبادلنا تحية عميقة..

– منتصف نهار سعيد، نتناول الغداء أم نشرب القهوة؟

– نتناول الغداء ونشرب القهوة، ونبحث عن عباس..

– عباس في الداخل، اليوم موعدك مع الشوارما.. تمتّع بألذّ الأطباق، فأفضل الطباخين في العالم رجال وليسوا نساء..

– لكن أفضل القلوب قلوب النساء يا مرجان، خاصة قلب أمي.

– تبدو مشتاقا لرائحة المطلوع وكأس اللّبن، لذلك تذكّرت أمك!.

– الأم وطنك.. إذا خذلك الوطن!

– الوطن لا يخذلك أبدا، إنما يخذلك أبناء وطنك عندما يطبخون الشوارما في الغربة مرّتين خلال أسبوع ليأكلوها وحدهم ولا يخبرونك.. فعلوها الأسبوع الماضي ولم يخبروك رغم أنك تسكن هنا بالقرب منهم.

– لا تقلق.. كنتُ لهم بالمرصاد، جئتُ بالصدفة وقبضت عليهم متلبّسين بالتهمة وكان عليهم أن يضاعفوا نصيبي من الغداء.

ندخل ونحن نضحك، ويسمعنا عباس فيقرّر التكفير عن خطئه بدفع ثمن القهوة لي في الخارج، ويُعاقب مرجان بمنعه منها وهو يقول له "أنت متهم بالوشاية والتبليغ الكاذب مع سبق الإصرار والترصّد"، فيجيبه "أستسلم لقرار القاضي احتراما لأحكام العدالة".

يتقاطر عسل الشهد الفلسطيني على حظي من حيث لا أحتسب، فهذه الجلسة منفردين هي ما كنت أخطط له وخشيتُ أن لا أجد الطريق لها.

نتجه إلى مقهى وسط المدينة ونأخذ موقعا استراتيجيا، ونجلس في كرسيين متقاربين، وكأننا متفقان على موضوع سريّ، ويزيد عباس في حياكة المشهد البوليسي بإخراج سيجارة ووضع النظارات الشمسية..

– هاه.. هات ما عندك، أنت ترغب في قول شيء، نحن في الجلسة التي تريد أن نجلسها، لا داعي للمقدّمات!

– أنت صارم جدّا وصريحٌ، ولا تشكّ في تخميناتك! كيف عرفتَ بأني أريد قول شيء لك؟

– فهمتُ من لقاءاتنا منذ تعرّفنا على بعضنا بأنك تخفي أمرا، وفي لقائنا الأسبوع الماضي فهمتُ بأنك ترغب في إخباري به.. هل لديك شكّ في أني أتيتُ اليوم من أجل هذا الموضوع؟

– وما هو هذا الموضوع؟

– أنا لستُ عرّافا أو كاهنا.. لا تتوقّع أن أخبرك بما يجول في رأسك؟ أنا فهمتُ بأن لديك موضوعا أمنيا خطيرا، يحتاج إلى المتابعة وتكثيف الاستعلام المخابراتي حوله، أما مضمون الموضوع بدقّة فلا يعرفه أحدٌ غيرك.. لننهي الموضوع قبل أن تغادر أوكرانيا، بالمناسبة، هل ستعود إلى الجزائر؟

أتعجّب لدقّة معلوماته، وأوشك أن أقول له "أنت تعرف الموضوع بدقّة"، ثم أفكّر في أن أسأله "هل تعرف عمي الصالح؟"، لكنني أتذكّر بأن عمي الصالح لا يعرف شيئا عن موضوع سلاف، تتفاقم الأسئلة في رأسي وتزداد أدوات الإستفهام عنها تنوّعا: "من، كيف، أين، لم.."، ثم أقرّر تجنّب فتح موضوع ثانوي لا يخدم لقاءنا.

– لا تتعجّب، يبدو أنك تفكّر وربما تشكّ في شخصي، سنفتح قوسا صغيرا من أجل راحتك ثم نغلقه، فما نحن هنا لأجله أهم من أيّ شيء آخر.

كلّ ما عرفته عني صحيح، عدا الإسم، فأنا لستُ عباس، ولا يهمّك معرفة اسمي الحقيقي، ظروف الفلسطينيين، خاصة الذين يقاومون الاحتلال دفعتهم للعيش بوثائق مموّهة وأسماء وهمية، وغالبا ما تجدهم مدرّبين على استعمال السلاح ومكوّنين استخباراتيا، ولا يعني التكوين الاستخباراتي بالضرورة تتبّع المعلومات والأشخاص وتنفيذ العمليات، فالتكوين الاستخباراتي في غالبه ذو طابع وقائي، والاستخبارات علمٌ قائمٌ بذاته،

أساسه اكتشافات علم النفس والتنمية البشرية، بمعنى واضح قراءة الشخصيات وتوقّع السلوكات الفردية وردود الفعل مع تحليلها لتحديد التصرّف المناسب، والقاعدة أن مختلف الظواهر والتصرّفات داخل الجماعات أو لدى الأفراد تخضع لقوانين ناظمة تحكمها، سأعطيك مثالا.. أنا فهمتُك في لقاء الأسبوع الماضي، حين كنت تسأل بطريقة ملتوية وترغب في معرفة علاقاتي.. كانت أسئلتك تعكس شيئا من الخبرة في الحياة بما يجري حولك، فأنت متفطّن.. وعندما أردتُ أنا أن أتأكد من هذا الاستنتاج عنك، سألتُك "لماذا ذهبت إلى قبرص ثم تركتها وجئت إلى أوكرانيا؟"، هل تتذكّر؟ كان أوّل سلوك بدر منك هو رفع رأسك إلى السماء وتثبيتُ نظرك إلى الأعلى، هذه الحركة إذا فعلها أمامك أيّ شخص سألته فاعلم بأنه سيكذب عليك في إجابته، وإذا ربطنا هذا السلوك بقبرص المتخمة بالمافيا الإيطالية والجواسيس فالموضوع واضح... أغلقنا القوس وقد كانا كبيرا وليس صغيرا.

– سأكون صريحا مثلك أو كما أعتقدك..

تعرّفتُ على فتاة أردنية وأنا في الجزائر عن طريق الفيسبوك، وطيلة أربع سنوات كنا نتحدّث يوميا، دون أن تكون بيننا أيّ علاقة عاطفية، وذات يوم طلبت منّي أن أسافر إلى قبرص لنلتقي فيها، ووعدتني بأني سأعيش حياة أفضل هناك، فسافرتُ والتقينا، ولكن بعد فترة قصيرة كشفت لي سرّا، رغم أني لم

أصدّقها، فهي تزعم بأنها خرّيجة مخابر الاختراق وتدرّبت على تفكيك المنظومات الإيديولوجية وجماعات الرأي عند المسلمين بهدف نشر الفوضى، لكنها قرّرت التوبة وهربت من أصدقائها وصارت تدعو إلى الدين وتحارب الكفر، وهي تقول بأن الجهاد يبدأ داخل الدول المسلمة من أجل إعادة المجد وتصحيح المسار وبعدها يأتي دور الجهاد في الكفار.

كل هذه القصص لم تعن لي شيئا، رغم شبكة علاقات سلاف الغريبة والقوية مع أشخاص كثيرين، هذه الفتاة ليست سهلة ولا تتحرّك بمفردها، ولستُ متأكدا إن كنتُ قبل الالتقاء بها قد تعاملتُ معها هي وحدها أم أني كنتُ أتعامل مع أشخاص آخرين أو شخص واحد آخر يتكلّم باسمها، كنتُ شديد الحذر في التعامل معها، وأحيانا أحاول مقارنة أساليب الحديث الذي يجري بيننا للتأكّد من وجود فرق، لأننا كنا نتواصل عن طريق الكتابة في الماسنجر وليس عن طريق الفيديو.

ومُذ غادرتُ قبرص لم ألتق بها، لكنها راسلتني مرّات عدة، آخرها قبل شهر، بدت تسأل عني بحذر، غير أنها مازالت تلحّ على أن نلتقي وتخلط في حديثها بين المال والتديّن.. عرفتها جيّدا منذ فترة، لذلك لا أريد التنازل عن ملفها بهذه السهولة، يجب أن أعرف من هي وماذا تريد، لكن بعيدا عن قبضتها.. من الصعب أن تتفاوض أو تتحدّث من منطلق قوّة وأنت في وضع الأسير.

– وماذا تريد أنت الآن؟

– أريد أن أستدرجها إلى أوكرانيا، أعرف بأنها لن تكون بمفردها، سيكون معها مرافقون، ربما اثنان أو ثلاثة أو عصابة.. أظنك فهمتني إلى ما ألمح!.

هل تُحسن استعمال السلاح؟

– نعم، تعوّدتُ على استخدام مسدّس عيار تسعة ملمتر ومسدّس موكاروف..

– مازلت بدائيا في أسلوبك يا زهير، السلاح لم يعد مسدّسات أو رشّاشات، ولا حتى صواريخ وبوارج حربية.. السلاح أقمار صناعية، السلاح معلومات يتم تدويرها وإعادة تصنيعها حسب الحاجة، السلاح فكرة.. ربما إشاعة وربما حقيقة، السلاح كلمة ناعمة تخترق بها القلوب لتتحكّم في العواطف بعقلك.. سلاف هذه التي تتحدّث عنها، ماذا وجدت عندها؟ هل وجدتَ عندها مسدّسا؟

أنا أجيبك.. أنت وجدت عندها حاسوبا وجواز سفر، لكنك لم تنتبه إلى أهم شيء عندها.. هل عرفت ما هو؟.

– ما هو هذا الشيء الأهمّ... لستُ أدري؟!

– لماذا غادرتَ الجزائر؟

ما غادرتَ أنت وطنَك لأجله هو الذي يبحث عنه الناس جميعا.. أنت سافرت إلى قبرص من أجل المال، وعندما لم تجده

وشعرت بالخطر جئتَ إلى أوكرانيا، ولم تبق في مقدونيا لأنها دولة فقيرة ولا تملك المال.. أليس هذا هو الصواب؟

هل تريد أن أريك سلاحي؟ أنت تملك مثله ولكنك لا تستعمله استعمالا صحيحا.. هل عانيتَ من مشكلة الفيروسات في حاسوبك أو هاتفك؟ طبعا حدث ذلك، ماذا فعلتَ حينها؟.. اشتريتَ برنامجا مضادّا للفيروسات..

الذي صنع برنامج الفيروس هو الذي يصنع البرنامج الذي يحاربه، فيبيعه لك، القضية قضية مال.

نحن نشتري الصحف لنقرأها، لكن هذه الصحف تبيع لنا الخبر ولا تنقله مجانا، الصحف في منطق الاقتصاد شركات إشهار، هدفها جمع الأموال الطائلة وليس نقل الأخبار للناس! لذلك تساوم الشركات بكثرة جمهورها للحصول على فرص الدعاية التجارية.

– هل يمكن أن نعود إلى موضوعنا؟

– طبعا يمكن أن نعود إليه، هل تسمح لي بأن أكشف لك سلاحي؟ لديّ ما أرغب في أن تراه.

يخرج عباس هاتفه الشخصي من جيبه ويفتح ملف الصور داخله وهو يضحك..

– هل تعرف صاحبة هذه الصورة؟

أكاد لا أصدّق!، أفرك عينيّ بيدي، أفتح فمي، وأعجز عن قول كلمة واحدة، بينما يمرّر عباس الصور لأراها، يشتدّ تعجّبي،

ويرتفع سقف توقّعي، ولا أستبعد أن أجد صورتي في غرفة النوم ضمن ألبوم الصور..

– هذه هي سلاف، كيف حصلتَ على صورها؟ أم أنك تعرفها؟.. هل تعمل معك؟

يلبس عباس ثوب الغرور ويصمت قليلا، كأنه يريد أن يستمتع بمزيد من مشاهد التعجّب والاندهاش أمامه، فأفهم بأن ردود فعلي بالنسبة إليه هي إطراءٌ كبير له، فأتوقّف عن الحديث وأتجنّب التوقيع على غروره بكلمات من لساني، يعرف عباس جيّدا بأن فرصة من هذا النوع لن تتكرّر، لذلك يحاول استغلالها إلى أبعد الحدود، ثم ينتبه إلى أنه بالغ في طلب الثناء..

– هذه الفتاة معروفة بين رجال المخابرات في عدد من الدول ولكنها غير مطلوبة على لوائح الأنتربول لأنها تجيد تسيير أعمالها، وحين تتفطّن إلى قرب كشف قضية لها، تكلّف أشخاصا لا تعرفهم بإدارتها دون أن تمنحهم فرصة التعرّف عليها، فيتم القبض عليهم وتسجّل القضية باسمهم، سلاف لا علاقة لها بالسياسة ولا بالحروب ولا بالأنظمة، إلا إذا كانت علاقاتها في رشوة المسؤولين للتغطية على نشاطاتها أو تسهيل مهمة، لا تهمّها الإيديولوجيات ولا الديانات، دينها وعقيدتها هو المال، تتاجر في كل شيء يمكن أن يدرّ أرباحًا، لكنها لا تستثمر إلا في الكواليس وليس لها أسهم في الشركات، هي تملك ثروة طائلة لا تقدّر بثمن.

– بالمناسبة، هل وجدت أثرا للسلاح في الصور التي رأيتها عندي؟

– لا، لم أجد أيّ أثر.

– هل أنت متأكّد يا زهير؟

– آه.. سلاح لوحة رقمية في بعض الصور، وهاتف ذكيّ في بعضها الآخر.

– هل تعرف شيئا عن نظرية الصدمة؟

– ربما أستطيع أن أستنتج مفهومها من الكلام الذي دار بيننا..

– ما قامت به سلاف معك عندما حاولت إقناعك بعلاقتها مع تنظيم القاعدة هو التطبيق الذكيّ لنظرية الصدمة، كانت ترغب في صدمك بطلب خطير، من أجل تهيئة نفسيّتك لقبول ما هو أقلّ خطورة منه، وغالبا ما يستعمل السياسيون هذا الأسلوب مع الشعب عندما يكونون بصدد إقرار قوانين مُجحفة، حيث يرفعون سقف مشاريع القوانين، ثم يقرّون قوانين أخفّ منها، في الواقع هي القوانين التي كانوا يرغبون في إدراجها منذ البداية.

تملك سلاف تكوينا قويا يدخل في الاستراتيجية الأمنية ضمن تكوين المخابرات، فهي تعتمد على قراءة وتحليل الشخصية ضمن حدودها الفردية وفي ضوء انتمائها الثقافي، ولولا كفاءتها العلمية ما كانت لتنجح في تضليل أجهزة الأمن

وإبعاد أنظارهم عنها.. الحرب القادمة حرب علمية مخابراتية، أما السلاح فهو لمجرّد الاستعراض أمام شعوب الوطن والشعوب الأخرى لتجنيد وعيها واحتوائه ضمن سياستها.

– لديك قدرة عالية من الناحية النظرية، لا أدري ما قدرتك في الميدان.

– الميدان مازال لك.. هل تملك معلومات جديدة عن سلاف؟

– لم أفتح الفيسبوك منذ فترة، كما أن صِلتي بها تراجعت، ربما تركت لي رسالة..

– ألا تتابع نشرات الأخبار؟

– لم أفهم إلى ماذا تشير؟

– عندما نعود إلى السكن، ألق نظرة في بعض وسائل الإعلام، لكن لا تصدّق ما تشاهده وتسمعه فيها!.

****

اجتاحني ندمٌ شديدٌ عندما وجدتُ نفسي تلميذا صغيرا يتعلّم على يد عباس فنّ التعامل ومرونة التصرّف في مواقف الأزمة، وشعرتُ بنقص لأني لم أطلع على كتب علم النفس وكتب السياسة، وزادت خيبتي عندما لم أتمكّن من الصمود لأجل جولة ثانية ترفع أسهمي أمامه، فاخترتُ أن لا أمنحه فرصة الحديث في الموضوع مرة أخرى، حتى لا يعود إلى استعراض عضلاته.

رافقني إلى غاية نهاية الشارع، ثم استأذنني بالرحيل، على أمل أن نلتقي في وقت آخر، فتوجّهتُ مباشرة إلى التلفاز، وبدأتُ التنقّل بين القنوات الفضائية لعلّي أفكّك شفرة عباس التي تركها لي عندما أوشكنا أن نفترق، فلم أجد شيئا يتعلّق بقبرص أو سلاف.

استلقيتُ على السرير وأنا أتساءل: "لماذا طلب مني أن ألقي نظرة في وسائل الإعلام ولا أصدّقها؟"، وساورني شكّ في أن خبرا قديما تجاوزته وسائل الإعلام قد فاتني، فعباس يعرف ويقصد ما يقول، ولفت انتباهي شريط الأخبار المتحرّك أسفل التلفاز في قناة أورونيوز مكتوب فيه "عملية اغتيال على الحدود الأوكرانية الرومانية.. مجهولون يطلقون وابلا من الرصاص على مواطنة فرنسية ثم يفرّون"، فأغيّر القناة نحو قناة روسيا اليوم، فأجد تقريرا صحفيا حول الحادثة، ويقرأ المعلّق "تعرّضت جوليا كريستينا إلى عملية اغتيال في الحدود بين أوكرانيا ورومانيا".

تبثّ الصحافة الأوكرانية والرومانية الخبر في قنواتها "جوليا كريستينا امرأة فرنسية، من أم يهودية وأب فرنسي"، وتنشر السفارة الفرنسية بلاغ الموت مؤكّدة فتح تحقيق مع سلطات البلدين في الواقعة، وتشير إلى أن الأمر كان مدبّرا بسبب مواقف كريستينا الإنسانية ضمن أنشطتها مع الجمعيات الخيرية في منطقة الشرق الأوسط.

يسقط جهاز التحكّم من يدي وكلام عباس من رأسي بعد صراع بين النعاس والتعب، يستسلم خلاله التعب، وأغطُّ في سباتٍ عميق يستحِلُّ ضوءُ الشمس حرمتَه في صباح الغد بشلالات من النور تغسل وجهي، أنزل مسرعا نحو التلفاز وأفتحه على قناة أورونيوز، مازال صدى خبر الاغتيال يصنع الحدث، وأقرأ نافذة على جانب شاشة التلفاز "جوليا كريستينا مواطنة فرنسية ماتت غدرا"، وإلى جانب هذا العنوان صورة كريستينا.. يا إلهي، إنها سلاف!.

أخرج مُثقلا بالأسئلة وأنا أوقّع نهاية روايتي بعد اختفاء كل أبطالها؛ أحمد، يوري، وسلاف، دون أن أكلّم مرجان وساعد، وقد استشعرتُ خطورة العالم حولي وانتهازية الناس، فأتساءل في نفسي "هل أنا مثلهم ولا أرى عيوبي؟ هل عمي الصالح استثناء في هذا العالم؟ هل يريد أن يعود إلى الوطن عبر عودتي أم يؤمن برسالة مقدّسة يُسديها لكل جزائريّ كديْنٍ واجب عليه تسديدُه؟".

أشقّ طريقي نحو عمي الصالح ككل صباح وأنا عاقد العزم على إخباره بهذه القصّة رغم ما قد يُحدثه الأمر من غضب بسبب إخفائه عنه، لكنني أتفاجأ بعد وصولي عندما أجده مريضا، طلبتُ الإسعاف وانطلقنا على عجلٍ.. كان الموقف بالنسبة لي وأنا أرافقه إلى المستشفى مثل موقف إنسان أصيبت عيناه ويسرع نحو الطبيب المختصّ لينقذ مشاهد العالم حوله من

الاندثار، كنت كمن يعيش اللحظات الأخيرة من أيامه.. وتعلّق وجودي بوجوده وبقائي ببقائه، ولم تكفني الساعات الطوال التي كنت خاشعا في سماع تلاوته خلالها في حسم قرار لبس ثياب الورع.. كنت كمن يطلب مزيدا من الفقه ليحسن العبادة حين يعلن توبته ويلقي ثوب الخشوع عليه.. أصبح البقاء خارج الوطن كفرا.

يطلبني الطبيب ويخبرني بأن المريض بحاجة إلى كمية من الدم، فأسرع إلى بعث دفعة من الأكسيجين النقيّ الذي مازال صافيا في عروقي ومحتفظا بخصائص زمرة الجزائريّ في جسمه.. يتغلغل مصل الوطن في شرايينه ويعيد تغذية مخّه وقلبه ويعدّل في وجدانه تردّدات الشوق إلى الأرض التي ولدته، أرخي ذراعي وهي مكمدة بالضمادات الطبية وأنتصب واقفا، ثم أنظر إليه، فترسل عيناه رسوما طاسيلية مليئة بالرموز، طلاسم بعمر آلاف السنين، لا تكفي رحلة بحث في الكون كله لتفكيك شفراتها، أهمّ بسؤاله "هل تريد أن أحضر لك شيئا خاصّا؟"، ثم أقرّر الاكتفاء بالصمت، أحمل مخطوط عينيه مطأطأ رأسي وأنا أتوجّه نحو الباب للخروج، وألف سؤال يدور في ذهني عن نظرته.. أتوقّع أنه يخفي أمرا ما ويبحث عن الشخص المناسب للبوح بسرّه.

أصبحنا نضرب مواعيد المقابلة على سرير المرض، أدخل عليه كل منتصف نهار فأجده يشدّ بقبضة يده على محفظته

القديمة البالية التي لا تفارقه لحظة، أقاسمه الحديث ويبادلني الأفكار دون أن يجرأ على سؤالي "ماذا قال الطبيب عنّي؟"، رغم أنه لاحظ شدّة حرصي على مقابلة الطبيب وإطالة الحديث معه، كأنه كان يعرف ما يجري من حديث بيننا، أو لا يبالي بهذه الحياة التي فقد طعمها، يضحك وهو يقول لي..

– يعتقد الناس بأني مجنون، فأينما أحلّ يُخلون لي المكان للجلوس أو المرور ويبتعدون عني، وبتجنّبون الاحتكاك بي بسبب ثيابي الرثّة الممزّقة وقلّة النظافة، لو يعلمون ما في هذا القلب وهذا الرأس ما فعلوا ذلك!.

– الناس يحكمون على المظاهر، لو فتحت النقاش مع العابرين أمامك لتغيّر رأيهم.

لاحظ كلانا بأن حرارة الحديث الذي كان بيننا قد تراجعت، فهمتُ بأنه يعيش برودة داخلية ويعرف ما ينتظره، وفهم أن الطبيب أخبرني بخطورة مرضه، وذات لقاءٍ، وجدتُ وجهه شاحبا والابتسامة تودّعه، ناداني لأقترب منه..

– لم يبق إلا القليل، صباح الغد كأقصى حدٍّ.

ارتبكتُ واجتمع عندي موقف الحزن بدموع الفراق، فحاولتُ أن أتظاهر بعدم الفهم، ثم انتقلتُ لإعلامه بخبر عن الجزائر، فسقطت دمعة من عينيّ واستدرتُ كأني أبحث عن شيء، ثم انحنيتُ لربط خيط الحذاء.

– قلتُ لك اقترب مني.. لستُ بحاجة إلى دموع أحد، هات يدك..

يمدّ أصابعي حتى تستقيم، ينظر في كفي متمعّنا، ثم يبسط راحة يده فوق راحة يدي كمن يصافح، ثم يعيد طيّها ويضم يده الأخرى إليها وهو يقول "هذه هي اليد التي ساعدتني، كم أنا محظوظ بها وكم ستكون أنت محظوظا بها، يد الخير لفعل الخير.. كنتُ أبحث عنها منذ زمن طويل، لقد أعطتني الكثير، ولابد أن تحصل على الكثير.."، ثم يسلّمني محفظته..

– أمسك بهذه المحفظة..

– ماذا يوجد فيها؟

– أنا، أنا بداخلها، هذا ما أستطيع أن أعطيك، ما فيها حلالٌ لك، كنتَ أسرتي وإبني ووطني، أريدك أن تسمع منّي بانتباه وحرص، تذكّر جيّدا ما أقول لك.. "داخل هذه المحفظة خريطة تعود إلى الوجود الروماني في الجزائر، تتضمن مخطّطا لجزء من مدينة مندثرة قام الرومان ببنائها في سطيف، وهي تقود إلى سرّ مهمّ، إن لم يكن كنزا، فقيمته تساوي الكنز".

– من أين حصلتَ عليها؟

– حصلتُ عليها من صديقي الذي حدّثتك عنه، ذلك الجندي الذي كان مجنّدا في الجزائر مع الاستعمار، وقد أخبرني بأنه سرقها وأخفاها عن بقية الجنود حين شارك معهم في مداهمة

زاوية بإحدى القرى، حيث انتبه إلى الورقة ولاحظ أنها قديمة وتضم رسومات لنحوت صخرية، فعرف بأنها ليست مصحفا.

– ولكن من أخبره بأنها خريطة كنز؟

– ذهب إلى الحركى الذين كانوا معه وطلب منهم أن يسألوا كبار السن وشيوخ الزوايا عن محتواها، فلمّا سألوهم أجابوهم بأنها خريطة لمدينة بائدة بناها الرومان، وتوجد بها مخازن ومقابر دُفنت فيها الكنوز والتماثيل.

– ولماذا لم يُخرج هؤلاء الناس هذه الكنوز مع ما هم عليه من فقر؟

– سألته السؤال نفسه فقال لي بأن الناس يخشون الاقتراب من هذه الأماكن لأنهم يعتقدون بأن الكنوز فيها مقيّدة بالسحر وتحرصها الجن، كما أن وجود التماثيل المحرّمة جعلهم يتجنّبونها، وقد التقيتُ بالعارفين بالسحر فأكدوا لي بأن تقييد الكنوز بالسحر مشهور عند الأمم السابقة وأن الجنّ تميل إلى حراسة الكنوز ولو دون أن يُقفَل عليها بالسحر.

– ولماذا لم يخرج صديقك الكنز؟

– كانت الحرب دائرة في الجزائر وهو يرغب في الانفراد بالغنيمة وحده، لا تسأل كثيرا ولا تشكّك في الموضوع، فأنا سألتُ أكثر منك وتأكّدتُ من صحة القصص، وإذا أردتَ أن تعرف الحقيقة من كتب التاريخ، فابحث حول أماكن وضع الكنوز والأشياء الثمينة قبل أن توجد البنوك.. كانت توضع في

أماكن محصّنة تحت الأرض حتى لا يصل إليها أحد، خاصة الغزاة الذين يهاجمون هذه القلاع، وكان الحكام حينها يضعون رموزا تشير إلى بنوكهم، ولكل حضارة رموزها.. يجب أن تبحث في الموضوع أكثر لتصل إلى الكنز الذي في الخريطة، لكن كن حذرا ولا تثق في كل الناس، يجب أن تبحث في سرية تامة.

– لكن في أيّ منطقة أبحث؟

– فكّك رموز الخريطة، ابحث بالأنترنيت، اقرأ الكتب.. اسأل كبار السنّ عندكم فهم يعرفون أسرارا كثيرة، ويحفظون قصص أسلافهم، هذه الخريطة مشهورة والطريق إلى مكانها بيدك.. اجعل مفتاحك في يدك وقلبك دليلك!.

– لو عرفنا المكان الذي عمل فيه هذا الجندي لسهل الأمر أكثر.. ما هو اسمه؟

– اسمه لا يفيدك، لأنه كان يتنقّل في أماكن كثيرة حسب العمليات والخطط العسكرية الفرنسية.

سافر إلى الجزائر في أقرب وقت، ولا تعد لزيارتي بعد اليوم ولا تسأل عنّي، عليك أن تنساني.. انصرف ولا تستدر خلفك، فالحياة أمامك وليست عندي.

****

آخذ طريقي نحو السكن وأنا أفكّر في كلام عمي الصالح عن الخريطة وتفكيك الرموز، وأربطها بدهاء عباس، ثم أعود إلى آخر كلام قاله لي في المستشفى "لا تستدر.. الحياة أمامك.."،

ثم أتساءل هل الكنوز هي الأموال والذهب فقط؟ أليس كلامه كنزا، أليست صداقة بعض الناس كنزا؟.

يتردّد كلامه في أذني مرّة أخرى "لا تستدر.. الحياة أمامك.."، هل هذه رموز؟.. وأبدأ أوّل خطوة في تفكيك الرموز وإعادة تشفيرها.. نظرتُ إلى كلام عمي الصالح كمخطوط قديم، ثم رحتُ أفهمه بطريقة مختلفة.. "جهة الخلف التي نهاني عن الاستدارة إليها هي أوروبا التي هاجرتُ إليها، وجهة الأمام التي دعاني إلى الانصراف إليها هي الوطن الذي تركته، هذه هي وجهة الحياة.. الحياة موجودة في الجزائر".

مشكلتي أنه عليّ أن أحسن خوض الحرب مع نفسي، يجب أن أوفّر لها كل الظروف النفسية من أجل أن أنقل الرعب إليها في الطرف الآخر حيث يقبع عدوّي داخلها.. ذلك العدوّ الذي يوسوس لي بالبقاء في أوكرانيا أو مدّ حبل المغامرة والدخول إلى دولة أخرى..

نحن دائما نفتح جبهات للحرب مع أنفسنا من أجل أن نقنعها بخيار لا تريده، وأحيانا ندمّر كل شيء فيها، نحوّلها إلى خراب من أجل تكريس شيء ترفضه، لذلك تفشل كل مشاريعنا، وحين ندرك ذلك، نسعى إلى التصالح معها، لكننا نحتكم إلى المنطق نفسه، نبني السّلام في جهتها، ثم نخرّب بقاعا أخرى، هذه هي سياساتنا، نبني ونهدم دائما...

ورغم معرفتي بهذا القانون، إلا أني تمسّكتُ بسياستي التقليدية في تسيير شؤوني وقرّرتُ أن أخوض حربا نفسية مع نفسي على أمل أن أصل إلى ما أريد، فإن فشلتُ، فسأنادي إلى التصالح معها.. ورحتُ أبحث عن أسباب أخرى تقنعني بترك أوكرانيا.

فقدتُ كل الألوان خلال فترة سفري، منذ وطئت قدمايَ قبرص، ثم ألبانيا ثم مقدونيا ثم أوكرانيا، ولم يبق في عينيّ غير الأسود الدّاكن!.. مزيدٌ خطوات سينتهي بفقد ما بقي من الألوان.. كنتُ أعرف منذ البداية بأني سأكابد معاناة شديدة عندما أرسم أثر أوّل خطوة خارج حدود الوطن، مثل كل أولئك الذين هاجروا ثم استقرّوا في المهجر أو عادوا ناجحين أو خائبين، وكنت متأكّدا بأني قد أجني المال، ولكني إن نجحتُ في ذلك فسأفقد ما لا يُشترى ولا يستردّ إن ضاع بالمال، إنه الانتماء، ذلك المكسب الذي لا ننتبه إليه إلا عندما نفقده.

جلستُ على الأريكة إلى جانب مرجان، طويتُ ركبتيّ ووضعتُ رأسي عليهما، وخضتُ نقاشا عميقا مع نفسي، حاول مرجان أن لا يتورّط فيه بفتح كتاب كان أمامه وقراءته..

هل تعود يا زهير إلى الجزائر بهذه السهولة؟ وماذا ستقول للناس هناك؟ هل ستخبرهم بأنك لم تجد عملا أم تقول لهم بأن هذه البلاد لم تعجبك؟.. هل تخبرهم بأنك سافرتَ من أجل السياحة أم من أجل سلاف؟.

قرار العودة فارغ اليدين صعبٌ..

اعترفتُ لنفسي بعد هذه التجربة بأني بين اختيارين لا معنى لأيّ منهما، بين أن أبقى في أوكرانيا وأنا الذي مازلتُ فاقد البوصلة فيها، وبين العودة إلى الجزائر وأنا لا أملك فيها شيئا وغادرتُها بعد محاولات بقاء عديدة انتهت بالفشل.

فهل أعود من أجل الكنز؟

شعور مقيتٌ بالخسّة والوضاعة يحفر داخلي عندما أربط عودتي بالمال، يخفّف من حدّته مشهد دمعة أمي ولهفة أبي وحيرة أخي وشوق أصدقائي، فأحاول العبور بخريطة الكنز عبر نفق جانبيّ أطيّب به خاطر الجانب المنكسر في نفسي.. تفلتُ زمام الأمور من يدي وأضرب الطاولة بقبضة عنيفة فيهتزّ مرجان فزعا..

– ما بك؟

– لا أحد مات جوعا في الجزائر، نحن هنا نتسوّل عند الأوكرانيين، وعندما نعود إلى الوطن نفتخر ونخفي ما لا يعرف الناس عن غربتنا...

– ما بك يا زهير؟ هل حصل لك شيء اليوم؟

– لم يحصل شيء، لكن لماذا نأتي إلى هنا ونرهن رقابنا من أجل حفنة دراهم؟

ماذا نفعل بالمساحات التي حرّرها الشهداء؟ هل حرّروها من أجل أن نتركها ونهاجر إلى أوطان أخرى أو نلحق بالمستعمر

ليستعبدنا بالعمل عنده؟ أم حرّروها لنرقص ونغني فيها ونبني لهم معابد لنشكرهم على تحريرها؟ لماذا لا نعمل ونناضل من أجل أن نعيش في أوطاننا؟.

تخمد ثورة الغضب في صدري، تنطفئ نارها ويتلاشى دخانها، وأشعر بأني أعطيتُ نفسي بتفجير غضبي جرعة تحتاجها لإحداث توازن مع حالة اليأس والارتباك، يصمت مرجان وأفهم بأنه يريد أن يقول لي "لا تعالج مرضا لا شفاء له"، وأهمّ بالرد عليه "لابدّ له من شفاء"، لكنّني أخشى أن يجيبني "أنا لم أقل شيئا فلا تفكّر نيابة عنّي".. أستسلم في معركة كنت الجنديّ الوحيد فيها وقاتلتُ نفسي ضدّ نفسي، وخرجتُ منتصرا، إلا من التفكير نيابة عن مرجان.

أخطّط بعيدا عن العيون لغطس جمرة هذه الخصومة في شلال كفريدة ببجاية، وأعد نفسي بارتشاف قهوة في ساحة لابلاس غيدو المطلّة على الميناء، أخفي هذه الوعود في زاوية مظلمة عندي حتى لا يعلم بها أحد، وأحتفظ لنفسي بحق الاختفاء المفاجئ، تماما مثلما ظهرتُ.. فكرامة المواقف قد تحتاج أحيانا إلى أن تلبس ثوب السحر.

****

أطرق الباب بعد صمت طويل وغياب مفاجئ، يتزاحم الجميع لفتحه.. تتناثر صيحاتٌ هنا وهناك وتُذرف دموع، يشتدّ الصراخ فيخرج الجيران، يحمل أخي الأكبر هاتفه ويصوّر فيديو

ليوم تاريخي كأنه يوم ميلادي.. تعانقني أذرعٌ وكلمات ويقهرني الحياء من تجاعيد وجه أمي ورجفة يد أبي.. لا يتأخّر الجميع في التعبير عن غضبهم ويتشابك كلامهم "أين كنتَ؟ قالوا لنا ماتَ في البحر غرقا وهو يحاول الهجرة، وقالوا لنا ألقى به أصحابه في البحر لأن القارب كان ثقيلا وكاد يغرق، وقال أبناء عمومتك اعتقلته الشرطة السرية لأنه كان يتاجر بالمخدرات، وتحدث الجيران عن اختطافك لأنك زهريّ وتفكّ أقفال صناديق الكنوز وقالو لنا رفعته الجنّ لأن ابنة ملكهم تريد الزواج منه... لماذا نسيتنا؟".

– لم أنسكم، كنتُ أنوي الاتصال بكم، ولأني قرّرتُ الرجوع فقد فضّلتُ أن أترك عودتي مفاجأة لكم.

– هل ستعود؟

– لا، لن أعود.. لن أترككم مرّة أخرى.

– هل أنت وحدك؟ هل تزوّجتَ؟

– لا.. جئتُ وحدي..

– خالتك في إيطاليا تسأل عنك منذ أيام، كانت هنا وقد أحضرت معها ابنتها، ربّما تريد أن تراها لتزوّجها لك، فهمنا ذلك من كثرة شكواها من الشباب عندهم، هي تقول إنهم لا يصلحون لتحمّل مسؤولية بناء الأسرة، وهذه هي المرة الأولى التي تحضر فيها ابنتها الصغرى معها، نكاد نقسم بأنها تريد أن

تزوجها لك وتأخذك معها إلى إيطاليا لتعيش هناك.. ابنتها سلاف جميلة جدا، شقراء مثل تلك اللواتي نراهن في الأفلام..

كدتُ أقول لهم "شبعتُ من سلاف"، ثم استحيتُ أن يفهموا كلامي فهما خطأ..

– سلاف ماتت، قتلوها على الحدود الأكرانية، ودفنتها أنا قبل أن تموت!

– ماذا تقول؟ سلاف ركبت الطائرة هذا الصباح مع أمها وعادت إلى إيطاليا، وقد أخبرتنا أنها زارت بريطانيا وفرنسا فقط، ولم تزر أي دولة أخرى في حياتها..

– لا تصدّقوها، ربما ليس اسمها سلاف، قد يكون اسمها كريستينا أو أيّ اسم آخر، لا تصدّقوا ما يقولون لكم، هم يعيشون حياة الخدم عند أسيادهم، لكن عندما يأتون إلينا يلبسون الفخامة، ومعها يلبسون ثياب الطهر ويُظهرون التمسّك بالتقاليد ويسألون عن الحلال والحرام.. الفودكا والويسكي تجري في أمعائهم...

يستغرب الجميع إجابة زهير وهم يردّدون بينهم "عاد هذا المجنون بعقل حكيم، ماذا شاهد هناك ومع من كان حتى يتحدّث بهذه الطريقة؟".

يرمي زهير حقيبته الوحيدة التي عاد بها وهي بالكاد فارغة ويسأل عن أمه..

– أين هي أمي؟

– هي جالسة وحدها تبكي.. بعد أن عدت شعرت بمعنى الفقد.

يضع زهير يده على يد أمه، يسند رأسه إلى رأس الوطن، ويسمح لدموعه بالانهمار، تجري وديان من الشوق واللوم بينهما، ولا تجرأ على مدّ يدها إليه..

– "سامحيني يا أمي، سافرتُ من أجلك وعدتُ من أجلك، كنتُ أعرف منذ البداية بأني لن أجدك هناك".

تسكت الأم وتتوقّف دموعها، ويسمع الأب نحيب زهير من غرفة بعيدة، فيخرج إلى رواق البيت ويبقى فيه ذاهبا عائدا وهو يتكلّم بصوت مرتفع "الرجال قاتلوا فرنسا، تفحّمت جثثهم تحت قصفها، وحين خرجت لحق بها عديمو القلب والعقل.. ثم يأتي جيل ينتحر في البحار من أجل ركعة عند قدميها.. لماذا عدت؟".

يخيّم الصمت على أجواء البيت، وتتهامس النساء "الشيخ غاضب، لا تقتربوا منه"، ثم يرتفع صوتٌ خارج البيت.. "لقد بدأ الناس يصلون وهم يريدون رؤية زهير"، فيخرج والده لاستقبالهم، بينما يتأخر زهير عن الخروج إليهم...

انتشر خبر وصول زهير بعد أن التقط أصدقاؤه صورة له وهو يمرّ أمامهم مطأطأ الرأس دون أن يراهم ونشروها في الفيسبوك مع تعليقات "زهير بخير، عاد الشاب الطيّب سالما، لا تتأخروا عن زيارته في البيت.. تعالوا نحتفل بهذا العرس"، الجميع ينتظر

معرفة ما حدث وأين كان، وما هي مغامراته، الجميع يريد أن يستخلص الدروس.

لم يقنعني مشهد البطولة الزائف الذي وجدتُ نفسي فيه، خيبة أمل كبيرة تجثم فوق صدري، أيّ بطولة صنعتُ لولا دعاية أصدقائي في الفيسبوك ولولا اختفائي الغامض فجأة ثم ظهوري فجأة؟..

أتعجّب للناس الذين شيّدوا بطولة على مغامرة مجنونة ركبتُ فيها الطائرة وحوّلوها دون أخذ معلومة أو إذن مني إلى أسطورة كبيرة، وتناقلوا خبر قاربٍ ركبته ثم هبّت عواصف عنيفة عليه قبل أن يصل إلى الشاطئ وتكسّر بي، حكايات غريبة يسردونها لي ويسألونني عن محطّات فيها، لكنني التزمتُ الصمت وتجنّبتُ إجابتهم وتكذيبها أو الخوض فيها، قصص كثيرة حيكت حول رحلتي البسيطة.. قلتُ في نفسي "هل قصص الأبطال الذين نسمع عنهم تناسلت من رحم قصّة تافهة مثل قصّتي؟"..
أحجمتُ عن الإجابة، ورحتُ أبحث عن بطولة حقيقية تقودني إليها خريطة عمي الصالح، أخوضها دون علم أحد، وأخرج منها بطلا دون أن يسمع بقصّة بطولتي أحد، ثم يذهب خبري في قصص الأولين فلا تسمع به أمة.

طلبتُ صديقي الطيب بالهاتف، تذكّرتُ بأنه كثير السؤال والبحث ومحبٌّ للاكتشاف، مثقف بتمام معنى الكلمة، يجمع بين لغة الأرقام ولغة مجالس السّمر، يعرف تاريخ المنطقة من

حدود ممتلكات الناس في الأراضي الفلاحية ومن آثار خراب بيوت الطين والحجر، يقرأ مشاهد التاريخ في تضاريس الجبال ويرسم منحنيات الصعود والسقوط للجيوش التي مرّت بها، يسمي أشراف المنطقة وشيوخها ويذكر نسلهم من الأحفاد الذين يعيشون بيننا، وكثيرا ما يقارن فيعدّل أو يكذّب روايات يتداولها الناس، عرفتُ فيه قدرات جعلتني أقصده لأختصر مسافات طويلة تعيدني إلى العصر الروماني.

هرّبتُ اللقاء بيننا ذات حيرة إلى بيته الجديد في مدينة قريبة من القرية، فتح الباب وتبعته، سرنا خطوات، حتى وصلنا جدارية رومانية منسوخة عن نحت قديم، نظرتُ إليها وسألته "هل علّقتها احتفاء بعودتي أم استعدادا لحديثنا"، ضحك وهو يقول لي "علّقتها لأبي أكره فرنسا وأحبّ الحضارة"، طلبتُ فنجان قهوة من إبريقٍ أمامه، وأخذ كأس شاي وهو يقول "يبدو أننا سنجني محصولا وافرا في جلستنا!".

دخلتُ بيت الموضوع من بابه واعتذرتُ عن حذف المقدّمات، ثم أشرتُ إلى الجدارية..

– صديقي، الجوّ النفسيّ ملائم تماما، وأظنك ستفهمني.. ما سأقوم به أنا هو فتح الموضوع، وما عليك أن تقوم به أنت هو الوصول إلى نهايته لإغلاقه.

– لم أفهمك يا زهير.. هل تريد أن تشتري جدارية مثل هذه؟.

– أريد أن أحصل على ما هو أثمن من هذه الصورة مجانا.. أريد الأصل وليس الصورة، هل ترغب في تقاسم كنز معي!.

– هل عدتَ به من أوروبا؟ أم نذهب لإحضاره من هناك؟

– قد لا يبدو الموضوع جادّا بالنسبة إليك، وقد تظنني مجنونا، ولكن أنا أخذتُ احتياطاتي لإقناعك.

أخرج الخريطة من محفظتي وأضعها بين يديه، يقوم الطيب ويرفع صوته مصَفِّرا، يمسك رأسه بيديه ويفتح فمه..

– لا لا.. لم أكن أشكّ في سلامة عقلك! هذه مخطوطة أصلية، قيمتها تساوي الملايير، تاريخٌ بعمر آلاف السنين على وجهها، لو علم بها تجّار الآثار عرضوا عليك مبالغ خيالية لشرائها، لكن انتبه، لا يجب أن يعثر الأمن عليها عندك، سيعتبرونك مهرّب آثار، وهو نشاط مجَرّم وممنوع.. انظر إليها، هذه رموز رومانية، هل أحضرتها معك من أوروبا؟

– أريدك أن تبقي الأمر سرّا بيني وبينك، فأنت الشخص الوحيد الذي يعرف الموضوع، قد نصل بها إلى المال.

– أكيد سيبقى الأمر سرّا، لكن هل تعرف إلى ما تقود؟

– طلبتُك لنفكّك رموزها ونصل إلى أسرارها، كل ما أعرفه عنها هو أنها خريطة لمدينة رومانية بائدة كانت في سطيف ويوجد فيها كنز.

– لا أظن أنها خريطة لمدينة، فقد وقعت بين يديّ خرائط من أصناف مختلفة، وأنا أميّز بينها وأستطيع تفكيك بعض

رموزها، لا أريد التسرّع، ولكنني أكاد أجزم بأنها خريطة لمكان الكنز بالذات.. أنظر إلى هذا النقش الحجري، أنا خبير في هذه الأمور، فقد بحثتُ حولها كثيرا، هذا النقش لا يوجد إلا في الصخور التي تحتها كنوز.

– ما معنى هذا الشكل في هذا النقش؟ لماذا تركز عليه أكثر مما حوله؟

– هذا النقش موجود في كل الصخور التي نحتها الرومان ولكل شكل منقوش معنى، وأهم ما في هذه الأشكال هو المستطيلات، أنظر إلى المستطيل الموجود في الوسط، هو أطول من التي على جانبيه.

– هل يدلّ مكانه وطوله على كنز؟

– كل حضارة تضع رموزا لمؤسّساتها، مثلما نضع اليوم رموزا للصيدلية والبريد، ورمز البنوك عند الرومان يُعرف بالأعمدة المستطيلة التي تنحت في الصخور، فإذا كان طول العمود أكثر من سبعين سنتمترا، فتلك إشارة إلى أن الكنز تحت الصخرة.. لاحظ في جانب النحت توجد صورة إنسانٍ، هي واضحة، ويمكن أن ترى بأن العمود الذي في الوسط يكاد يصل إلى موضع كتفه، فطوله قد يصل إلى المتر.. وجود الكنز مؤكد.

نحتاج إلى وقت أطول لتفكيك رموز الخريطة، وإذا ثبت بأنها خريطة لمكان الكنز، فعلينا أن نبحث عن المدينة التي يوجد فيها، عُد بالخريطة إلى البيت وخبّئها في مكان سريّ، يكفي أن

تلتقط لها صورة دقيقة بهاتفك لنطّلع عليها عند الحاجة في تنقّلاتنا، ولكن لا تستعمل الأنترنت فقد يسطو عليها القراصنة ويسبقونا إلى الكنز، لابدّ من الحذر وأخذ كل الاحتياطات.

حضر القراصنة وحلّق التنين فوق رأسي ثم نفث بنار ملتهبة على أعصابي، فأحرق مبرّدات صبري، وزاد استعجالي لحلّ لغز الخريطة، كنتُ طيلة أيام البحث أختم اتصالاتي اليومية بالطيّب وأنا أقول "عندما نفكّك الرموز، تبدأ رحلة البحث.. مازالت الطريق طويلة"، وكان يردّ عليّ "التسرّع لا يخدمنا، يجب أن لا نلفت انتباه أحد بكثرة سؤالنا، فمجرّد الشكّ في وجود أمر سريّ عندنا لن يكون في صالحنا.. الحسد هو التنين الخطير الذي يجب أن لا يتفطّن إلينا...".

شغّلت كل أجهزة إنذاري بتقنية الإشارة الصامتة، وراحت أذنياي تلتقطان كل كلمة في مدار حرصي، إلى أن وقعت على خبر مهم زفّه لي أحد أصدقائي حين قال "لماذا لا تأتي لزيارتنا في مكتب الجمعيّة، نحن ننشط في جمعية تراثية تهتم بجمع المخطوطات القديمة وتشارك في المعارض الوطنية، وتنظم بدورها معارض عبر مختلف الولايات"، في هذه اللحظة بالذات عرفتُ أين كان ينبغي لي أن أتوجّه لأبحث عن حاجتي.

دخلتُ مقرّ الجمعية بشخصية الباحث عن المخطوطات لتحقيقها، بعد إخبار الطيّب وترتيب الأمر معه، وأسعفتني بعض المعلومات في مراوغة رئيسها، فسألته في أوّل خطوة نحو

هدفي "هل لديكم مخطوطات عن الحياة الاقتصادية للعثمانيين أو الرومان؟"، فتلقّف الفرصة دون تفكير..

– جمعيتنا تملك مخطوطات كثيرة في مختلف المجالات، منذ التواجد الروماني إلى العثماني، ولدينا أغراض ووسائل أخرى كانوا يستعملونها في قصورهم ولدى جيشهم.. جمعيتنا هي الوحيدة التي تملك الختم الذي كان يستعمله ماسينيسا في جيشه، مشكلتنا في التمويل المالي، لأن الميزانية التي تمنحها لنا الدولة لا تكفي لتغطية نفقات نشاطاتنا، لذلك نادرا ما ننظم معارض محلية، وأحيانا نضطرّ لجمع التبرّعات لتنظيم تظاهرة ما.

أراد الطيّب أن يعزف على وتر الدعم المالي لتسهيل مهمّتنا، فدخل استراتيجية محاربة الخصم بسلاحه، وسايره فيها كما يحبّ ثم أَسمعَه ما يريد.

– سأساعدك بالتوسط للحصول على مقرّ وعتاد مكتبيّ، يوجد بعض الأثرياء الذين يحتاجون إلى تقديم خدمات من هذا النوع، ولكن عليك منحهم وصل استلام مختوم حول الاستفادة من المساعدة، هذه مقدّمة، وبعدها ستحصل على مساعدات أخرى يمكنك أن لا تعطيه وصل استلام عنها.. أنت تعرف، لا شيء مجّاني في هذه الحياة.. يعطونكم المال ويكسبون أشياء أخرى، ربما تهمّهم السمعة فقط، وقد يجنون أموالا طائلة وتسهيلات كبيرة لقاء مساعدة بسيطة لجمعية ثقافية أو تراثية،

على كل هذا لا يضرّكم، ما يهمّكم هو أن تحصلوا على المساعدة والشهرة.

يستغلّ الطيّب الفرصة استغلالا فاحشا، فيرفع رجله اليسرى ويضعها فوق ركبته اليمنى وهو يشذّب شاربه..

– ما يحيّرني هو الطريقة التي كان الرومان يُخفون أموالهم وكنوزهم بها، فقد كانوا يدفنونها تحت الأرض.

– الكنوز في كل الحضارات وعبر كل العصور توضع تحت الأرض، وحتى عموم الناس يخفون أموالهم تحت الأرض، خاصة في فترات الحروب، يبنون لها صناديق صغيرة ويغلقون عليها، لدينا مخطوطات تشير إلى ذلك، وأكثر دفائن الرومان من الكنوز مازالت تحت الأرض.

– لماذا لم تخرجها الدولة أو الناس؟

– من الصعب التعرّف على أماكن دفنها يا الطيب، فحتى الخرائط ليست كلها صحيحة، بعضها وُضع لتمويه العدوّ حتى لا يصل إلى الكنوز عندما يهجم على القلاع، الرومان يحتاطون لحالات الحرب، وما كان صحيحا من الخرائط يطرح مشاكل أخرى، أكثرها انتشارا تقييد الكنز بالسحر.

– ألا تنفع الرقية أو السحر في فكّها؟

– الكنوز المقيّدة بالسحر مقيّدة أيضا بالرموز، ليس الأمر سهلا، فهو سحر على سحر، على المنقّب في الآثار أن يفكّك الرموز الموجودة في خريطة الكنز أولا، ثم يأتي دور فكّ السحر

عن الكنز.. الموضوع معقّد، وقد حصلنا على دراسة لمستشرق ألماني عن دلالة رموز الآثار وعلاقتها بالسحر عند الرومان، وهي شبيهة بطريقة الفراعنة في السحر، وقد وضعها في جداول، حيث يقابل الرمز بمعناه، وقد تجد أكثر من رمز في الخريطة الواحدة، لكن الرمز الذي يشبه الرقم الهندي ثمانية هو الوحيد الذي يوجد مع معظم الرموز الأخرى التي تتغيّر، وقد يكون وحده.

إذا أردت أن تثقّف نفسك فخذ صورة بهاتفك لهذه الجداول، فهي تتضمن الإشارة إلى كل المدن الأثرية في سطيف، ولو كانت معنا خريطة لكنز لسهل علينا تحديد مكانه بهذه الجداول، فعلا.. التكنولوجيا التي أبهرتنا وأنكرت السحر، ستقف عاجزة أمام تفسير هذه الحقائق، علّمونا في المدرسة منطق الرومان واليونان، لكنهم لم يعلّمونا سحرهم..

افترقنا على غنيمة لم يعد بمثلها أحد قبلنا، وطلب الطيّب مني مهلة لترتيب استقبال أحد أقاربه، همس لي ونحن نودّع بعضنا "غدا سأضرب عصفورين بحجر واحد"! ولأني كنتُ متعبا وأعيش نشوة النصر، لم أسأله أي عصفورين سيضرب؟.

وزّعتُ غنائم الكنز على كل الأقارب وعلى الجيران، تبرّعتُ لبناء مسجدٍ وتصدقتُ على الفقراء، زوّجتُ شبابا، ثم شققتُ طريقا وسط القرية وحفرتُ بئرا في جانبها، أخرجتُ ماءه للعابرين، تقاسمتُ أنا والطيّب إنجازاتٍ كثيرة، أخبرني برغبته في

القيام بها عبر الهاتف بعد وصوله إلى البيت.. مسحنا دموعا طال انهمارها وجفّ معينها وتركنا تحية السلام لبعضنا، في انتظار توقيع المشاريع من أجل انطلاقها.

جاءني بعد يومٍ، فبادرته..

– ربما عثر غيرنا على الكنز وأخرجه!

– أمرٌ مستبعدٌ، فإخراج الكنوز المطمورة بالسحر ليس سهلا، ومعظم السحرة الذين يقبلون إخراجها يشترطون الحصول على أجرة مسبقا ثم يهربون قبل موعد الطقوس.. الجن تؤذي من يقترب من الكنز، البارحة أخبرني الضيف الذي نزل عندي بأن صديقا له استأجر ساحرا تدرّب على يد الجنّ في مغارة دانيال المشهورة بالمغرب، واشترط عليه إحضار الماء من منبع لا تطلّ عليه الشمس عند توقيت الفجر، واستأجر عاملا للحفر لأنه خاف من الاقتراب من مكان الكنز، وعندما بدأ العامل بالحفر والساحر بتلاوة طلاسمه، باغتهم كلبٌ أسود من الخلف وبدأ ينبح عليهم، وعندما لم يغادروا اقترب منهم، فهرب الساحر وجنّ العامل، كان الكلب الأسود حارس الكنز.

توجد طرق كثيرة يا زهير.. ولكل ساحر شروطه وأسلوبه، لكن المشكلة أن السحرة يخافون الجن، كما أن الجنّ لا تتنازل لأحد ولو كان ساحرا، الموضوع خطير يا زهير، أنصحك أن تنسى الفكرة، لن نصل إلى الكنز مهما فعلنا، لا تعرّض حياتنا للخطر!.

– ألا توجد طريقة ليس فيها خطر؟

– الشخص الوحيد الذي يستطيع إخراج الكنز من موضعه هو الزهري، ولكن الزهريين قليلون جدا ولا يعرفون هذه الأمور، ومن يعرفها يخاف من المغامرة ولا يخوضها، لأنه سيدخل في التعامل مع كائنات من العالم الآخر، وربما تأخذه هذه الكائنات إلى عالمها.. لا أحد يضمن العواقب أو يدري ما الذي يمكن أن يحدث بالضبط، لقد سألتُ وتأكّدتُ من الموضوع.

– ماذا تقصد بالزهري؟

– الزهري هو الشخص الذي يوجد في كفّه خط واحد متصل يقسمها إلى نصفين، هذا الشخص هو الوحيد الذي يملك القدرة على الوصول إلى الكنز دون أن يتأذى...

– هل بحثت عن دلالات رموز الخريطة في الجدول الذي حصلنا عليه؟

– نعم، هما رمزان فقط، الأول قمرٌ تقابله شمس ليس لها أشعّة، والثاني ذلك الشكل الهندي للرقم ثمانية الذي تحدّث عنه مدير الجمعية التراثية، ويدلّ الأوّل على أن الكنز يُفتح قبل موعد الفجر، بينما الثاني لم أفهمه.

– الرمز الثاني هو رمز الشخص الزهري الذي حدّثتك عنه، وهو الذي يلتقي في يده خط الرأس بخط الحياة.. وخطّ الرأس هو الخط المتصل الذي يقسم كفّ اليد إلى نصفين.. هذا الكنز لا يفتحه إلا شخص زهري قبل الفجر، هذا ما تقوله الأسطورة!.

أنهيتُ كلام صديقي الطيّب بالتوقف عن السؤال، حاولتُ أن أنطق بالشهادة بيني وبين نفسي فاحتبست أنفاسي، شعرتُ بأن الجنّ حطّت بعرشها عندنا، وتصوّرتُ ملكهم جالسا على الكرسيّ والحرس حوله، ينتظرون الساعة التي أطرق فيها باب قصرهم.. شددتُ قبضتي على الخريطة، تنهّدتُ من أعماق نفسي وأنا أتساءل "هل أتصل بعالم الجنّ أم أعود إلى عالم الجنية سلاف؟".

دخلتُ إلى البيت، أغلقتُ الباب، ثم بدأتُ أمعن النظر في كفيّ الاثنتين "إنها الزهرية في تمام وكامل تشكّلها".. هذه الحياة لا تمنحك الفرص الجيّدة إلا إذا كانت مستحيلة، لا أدري لماذا كانت أمي تردّد أمامي دائما "أنت محظوظ جدا.. أنظر إلى كفّك"، هل كانت تقصد بالحظ الحياة اليومية التي أعيشها مع الناس من بني جنسي؟ أم كانت تقصد بها عالما غير عالم الإنس، عالم لم أخلق لأعيش فيه وممنوع عنّي..

أخرجتُ هاتفي، حدّدتُ رقم الطيّب مرّة ثانية وضغطتُ عليه.. هذا الصديق لن يخذلني، سنركب السيارة غدا ونتّجه إلى عالم الجنّ، شوقه إلى المال ليس أقلّ من شوقي...

**تمّت في 06 أوت 2019**

**سطيف – الجزائر**

## الطاهر مرابعي

كاتب جزائري، خرّيج كلية الآداب بجامعة سطيف، اشتغل في مجال الإعلام، ونشر مقالات في جرائد وطنية وعربية، صدر له كتاب "خبايا غرفة التحرير" عن واقع الصحافة المكتوبة وتحدياتها، وفي مجال النقد والأدب، نشر دراسات وبحوث متنوّعة، يشغل حاليا منصب أستاذ التعليم الثانوي.

هذا أنا.. المواطن الذي غادر الجزائر ذات ضائقة هربا من كل شيء.. من البطالة، الفشل، الرّعب، والعنف... وهربا منّي أيضا... أعترف لكم بأني حصيلة تجارب فاشلة وأزمات ممتدّة في الزمن، تمايَلتُ بي ريحُها.. أدركتُ منها سنواتٍ حارقة، رغم أني عشتُ تفاصيلها قبل ولادتي... محنٌ كثيرة ورثتُ منها روح الفشل، لكنّها علّمتني الإصرار...

اخترتُ التوجّه نحو قبرص نزولا عند رغبة سلاف، المطر الهادر الذي جرّت سيوله كل حقولي وأهلكت زرعي.. دخلتُ كييف، ولم تبخل عليّ بإكرام ضيافتي... استقبلت لهفتي وروّعت خوفي بذراعين مفتوحتين وقلب مغلق!... وهناك توالد الوطن في حُضنين، أفضى أحدهما للآخر بالأمانة...

ISBN :978-9931-738-88-6

خيال

khayaleditions@gmail.com